
ملف

الحدثاثة وما بعد الحدثاثة



-
- تقديم: هنا، الآن، الحدثاثة وما بعدها: فريدة النقاش
 - ثلاث ترجمات لأحمد حسان:
 - أصول وآفاق نزعة المحافظة الجديدة (نيقولا لافيسكوفيتش)
 - صورة بالأشعة لمذهب ما بعد الحدثاثة (أدولفو سانشيت باثكت)
 - من أجل ما بعد- حدثاثة يسارية (فرنثيسكو خوسيه مارتينث مارتينث)
 - هنرى لوفيفر بين الحدثاثة والحدثاثة د. أمينة رشيد
-

هنا .. الآن .. الحداثة وما بعدها

شاع مصطلح الحداثة فى حياتنا

الثقافية وبشكل خاص فى نقد الشعر والرواية الجديدين، وظل - إلا فيما ندر وضائق مساحة إنتشاره - معزولا عن قضايا الفكر السياسى والاجتماعى والفلسفى، وحتى فى ميدان النقد الأدبى ظل المصطلح مقطوع الجذور لم تنشأ بينه وبين تراث النقد العربى أية وشائج، وبدا كما لو أنه إمتداد لتقليد أوربى خالص حلت فيه عبر قرنين من الزمان تقاليد ثقافية جديدة محل القديم الذى ساد أوربا طيلة عصور البربرية والاقطاع حتى عصور النهضة .

وحين تأسست هذه التقاليد الجديدة ورسخت فى الرجدان الأوربى كانت تعنى صعود البرجوازية بديلا عن الاقطاع، ونمو الاقتصاد، وميكنة الزراعة ودحر الاقطاع، وفصل الدين عن الدولة أى حصاد التنوير الذى تخلل كل ميادين النشاط الانسانى، فأدى لظهور العقل النقدى ومفهوم

الحرية وتمجيد الفرد. وقد دخلت الحداثة أى النظام الرأسمالى بكل أشكاله الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الى بلدان الشرق دخولا تعمقيا عبر الاستعمار والقهر، وفرضت نفسها بطريقة علوية على جماعات وشعوب كانت قد أخذت تستيقظ من سبات القرون لتدخل بنفسها وبقواها الذاتية الى العصر الحديث، ولما كان التنوير والحرية بشمولها قد عقدت لواء السبق فى ميدان التقدم العلمى والمعرفة التكنولوجية لأوربا فإن الأخيرة قطعت الطريق بحسم وبقدراتها الجديدة على النمو الذاتى لبلدان الشرق وفرضت عليها وفى أضيق الحدود طابع حداثتها حتى تحكم قبضتها عليها فى حين خرجت الثقافات الجديدة فى هذه البلدان مقاومة تقدمية ومتميزة إستلهمت مفاهيم المساواة بين البشر والحرية

والمعرفة بإعتبارها نتاجا إنسانيا وليس أوربيا فقط، وإن بقيت هذه الثقافات منقسمة ومتناقضة بحكم تشوه الحداثة التي تعايشت مع قيم ومؤسسات قديمة. ولعل هذه الحقيقة تبرز بأوضح صورها فى الشعر العربى وهو فن العرب الرئيسى إذ أن ثلاثة أجيال متتالية من شعراء الحداثة وأشكال التجديد التى توصلوا اليها والإنتاج الغزير الذى أبدعوه لم تفلح حتى الآن فى اطفاء وهج الشعر العمودى الذى يكتبه حتى الآن باقتدار شاعران من أعظم شعراء العربية عبر العصور هما محمد مهدي الجواهري وعبد الله البردوني، وهما قادران معا على أن يتواصلا مع الوجدان العربى ومع اللغة الحديثة ويطوران أدواتهما ومضامينهما فى الإطار الشعرى الموروث ؛ ولعل دراسة هذين الشاعرين دراسة شاملة متأنية أن تدلنا على عمق وتجذر تناقضات الحداثة العربية، وعلى الحاجة الى أدوات جديدة تأخذ من فهم قوانين التطور العلمى المنهج العلمى الموضوعى التكاملى لتضيء واقعنا فى خصوصيته وتكشف تجليات هذه الخصوصية ومفرداتها، ومجالات فعلها وصراعيتها.

وإذا ما استقر وعينا على هذه المطابقة التبسيطية بين الحداثة والرأسمالية ودرسناها على هذا النحو باعتبارها حرية مفتوحة سوف يكون

بوسعنا أن نتفهم بصورة أكثر شمولاً مفهوم « ما بعد الحداثة » الذى أخذ يشيع بدوره فى حياتنا الثقافية، ومقطوع الجذور أيضا بنشأته فى أمريكا وأوربا حيث تجاوز المجتمع الرأسمالى المتقدم حالة الاحتكار والأمبريالية التى اقترنت بتصدير روى س الأمم —وال إلى المستعمرات، ليدخل فى حالة جديدة هى الشركات المتعددة الجنسية التى تقوم بنفسها بحكم المستعمرات وإستنزاف ثرواتها للمركز الاستعمارى. أى أنها مرحلة أعلى من الاستعمار الجماعى القائم على العلم والتكنولوجيا وإحتكار أسرارهما فى الصناعتين المدنية والعسكرية . وكما كانت تجربة الحداثة - الرأسمالية مشوهة لأنها لم تنفض الى الاستقلال والحرية والنمو الذاتى فى بلدان المستعمرات السابقة، فإن تجربة ما بعد الحداثة - أى الشركات المتعددة الجنسية فى هذه البلدان- جاءت بدورها مشوهة ووحشية لأنها أدت الى مزيد من إفقار هذه البلدان وأبقت القطاع المتقدم فى إقتصادها معزولا عزلة كاملة عن البؤس والخراب الذى حل بها، ونشأت المفارقات المذهلة فى شكل تطورها .

وفى مصر سوف نجد نموذجاً محتملاً لكتابة ما بعد حداثة فى رواية صنع الله إبراهيم الجديدة « ذات » التى

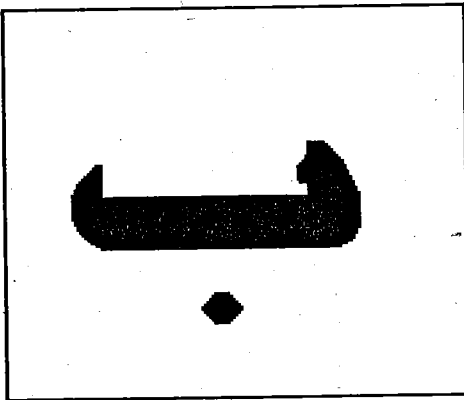
تزيح الغموض والجزئية عن المصطلحين الحادثة، وما بعد الحادثة، وتجعلهما مفهومين قريبين الى الناس ، لأن الوشائج الغامضة غير المكشوفة بينهما وبين الأساس الاقتصادي السياسى الفلسفى لهما ظلت حتى الآن غائبة .

وبعد فان هذه مقدمة قصيرة أرجو أن تكون مدخلا لقراءة هذا الملف عن الحادثة وما بعدها، يساعدنا فيما بعد على قراءة الحادثة وما بعدها فى واقعنا العربى قراءة صحيحة .

طور فيها تجربة اللجنة، ففى هذه الرواية « كولاج » من قصاصات الصحف وقد أعيد ترتيبها لتصبح خلفية لتطور الشخصيات الرئيسية المشوة، تبرز عليها، وفى صراع غير متكافئ معها عملية هجوم الشركات متعددة الجنسية على الاقتصاد والوجدان والتطور الانسانى المجهض

وإذا كانت تجربة ما بعد الحادثة فى أوربا وأمريكا قد نشأت بعد أن قطع المجتمعان كل وشائجهما مع النظم القديمة السابقة على الرأسمالية، فان هذه التجربة فى بلدان المستعمرات تقتزن - قسرا- بإحياء علاقات ماقبل رأسمالية فى هذه البلدان شأن نظام المزارعة فى الريف المصرى الذى يقتسم فيه المالك مع مستأجر الأرض محصولها، وهى علاقة إقطاعية كان من المفترض أن تنقرض مع الحادثة.

نحن إذن فى الحالتين، فى الحادثة وفيما بعد الحادثة، نتلقى أكثر مما نرسل، نتفعل أكثر مما نفعل وهو الحصاد المر للتبعية التى عجزنا فى ظلها أن نكون أندادا لغزاتنا، وقد حملت ثقافتنا تناقضات الحاليتين، وتستطيع النظرة الجدلية البقطة التى تدرج كل مفردات الانتاج الثقافى العربى وتربط بينه وبين نمط الانتاج الذى تتوسط بينه وبين الثقافة كهناؤ روحى وسائط عديدة، تستطيع مثل هذه النظرة أن



أصول و آفاق نزعة المحافظة - الجديدة

نيقولا فيسكوفيتش

(أ) الوضع الجديد

خلال السبعينات، وعلى نقيض العقد السابق حين كانت تسود في كل مكان قوى التحرر الروحي والسياسي، انطلقت في المجتمعات الرأسمالية الأكثر تطورا وفي مناطق النفوذ التابعة لها موجة عنيفة من إيديولوجيا رجعية بورجوازية هي نزعة المحافظة - الجديدة والليبرالية - الجديدة. من الناحية الوصفية، أصبحت الحقائق من الذبوع وكثرة العدد بحيث لم يعد من واجبا ولا في مقدورنا التحقق منها أو عرضها هنا بالتفصيل بطريقة صارمة التوثيق، انها معروفة، على سبيل المثال، تلك التيارات الجديدة للفكر الفلسفي والعلمي التي تميل إلى التشكيك في مفاهيم سابقة عن التقدم، والمساواة بين البشر، وسلطة العقل، وغيرها من القيم الموروثة عن عصر التنوير. ومعروفة كذلك الصعوبات التي واجهها الفن «الطليعي» الملتزم اجتماعيا مع إنطلاقة مذهب مابعد - الحداثة. ومعروفة أكثر تيارات الاستعادة في السياسة والاقتصاد - حيث

نشهد انتقالا سريعا من بداية الأفكار المبرمجة لنزعة مناهضة الإشتراكية، إلى خلق إيديولوجيا محافظة واسعة ومؤثرة، تفرض بنجاح هيمنتها الروحية، وفق أوامر الدولة - السياسة للريجانية في الولايات المتحدة الأمريكية، والتاتشرية في إنجلترا، والمحافظين الليبراليين والمسيحيين في اليابان، وفرنسا، وألمانيا، إلى آخره. وأخيرا، فإن الخبرة المباشرة والمعلومات الواردة من العالم، توضح البداية المتزامنة لنظام كامل من الأشكال التقليدية المجددة في حياة الإنسان المعاصر في المجال الشخصي والاجتماعي (العائلة، والعمل، والتعليم، والدين، ووقت الفراغ، إلى آخره). وهذا يعني أيضا أنه في هذه الموجة من تجديد الأشكال المحافظة، من اكتساب الوعي والعلاقات، لاتظهر كعوامل إيجابية وسلبية شريحة واسعة من المسائل السياسية فقط، بل كذلك عدد متزايد من المبدعين والمستهلكين الثقافيين، والعلماء، والطلبة، الشباب، ومالكي ومستخدمى وسائل الاتصال، وكذلك غالبية المواطنين في حياتهم اليومية. إن مدى، وعمق، وصلابة هذا الوضع الروحي الجديد لعصرنا تبين:

لهذا النموذج الايديولوجى السائد فى رأسمالية اليوم.

(ب) الخصائص

باعتبارها برنامجا واقعا سياسيا، فإن مبادئ النزعة المحافظة- الجديدة لم تتولد ذاتيا. أذ يكمن أصلها فى اتحاد غريب بين بعض عناصر النزعة التقليدية الثقافية، التى تواصل البقاء وهى تقاوم العالم الحديث بدءا من بيرك * BURKE ودونوسو كورتيس ** DONOSO CORTES وحتى الثورة المحافظة زمن فايمار، وبين الروح التكنوقراطى الذى يصاحب التحديث التكنولوجى المعاصر بدون المعايير الثقافية المناظرة له.

و«وحدة الأضداد» هذه (التي تتضح بجللاء فى قيام زعامة تاتشر بأضفاء الطابع التكنوقراطى على حزب المحافظين الإنجليزى، لكنها أكثر تطورا بكثير على المستوى القومى فى اليابان والولايات المتحدة)، تحدد ذروة الأزمة لمحاولة توفيقية لانقاذ الرأسمالية الراهنة بوصفها مجتمعا اكتسب أقصى قدرة مادية وروحية، لكنه فى نفس الوقت بلغ أدنى درجة من إمكانيات توجيه هذه القدرات (التي مازالت أكثر استعصاء على السيطرة وأكثر تدميرا). إن النظام التكنوقراطى الحالى يجد مزايا كبيرة فى الرجوع الى الثقافة والأخلاق التقليديتين: فى الاتحاد بين

أولا، إنه على مدى العقدين الأخيرين، تأسست نزعة المحافظة- الجديدة باعتبارها رؤية شاملة للعالم، مضادة أساسا لكل أبعاد العصر الحديث وبالأخص للرؤية الاشتراكية للعالم، وثانيا، إن نزعة المحافظة- الجديدة ليست فقط مشروعا اجتماعيا طموحا، بل إنها أخذت تبلغ حد كونها إحدى أصلب أسس العالم المعاصر وحقائقه السائدة روحيا.

وبالطبع، وينفس الطريقة التى تتنوع بها الاشتراكية اليوم، حسب الظروف الاجتماعية لمنشئها، فإن نزعة المحافظة- الجديدة قد تنوعت منذ البداية الى تنوعات تكون الاختلافات فيما بينها هامة. فلافى السياسة، ولافيما يخص الاقتصاد والثقافة، نجد أن نزعة المحافظة- الجديدة (P.E. الليبرالية- الجديدة كمذهب اقتصادى أساسى) هى نفسها فى أمريكا وألمانيا اليوم (راجع هابرماس) مثلما هى فى أى مجتمع آخر. إلا أنه، وفى داخل المجتمع الرأسمالى الأكثر تطورا، تبدت نزعة المحافظة- الجديدة ككتلة مكونة من اتجاهات مختلفة - بدءا من النزعة التقليدية المعتدلة وحتى راديكالية «اليمين الجديد» (١). ومن جهة أخرى، تتطابق هذه الاتجاهات تماما مع الانقسامات بين الحزبين الجمهورى والديمقراطى فى الولايات المتحدة، على سبيل المثال.

إلا أن الجزء الأكبر من هذه الاختلافات يمكن إغفاله فى عرض كهذا، يميل، على حساب اختزال التعقيد، إلى تحديد الخصائص، والأسباب، والآفاق الأساسية والعامّة

* بيرك آدموند (١٧٢٩-١٧٩٧): سياسى بريطانى عرف بعدائه للثورة الفرنسية.

** كورتيس، دونوسو

الحسابات الدقيقة والإنجيل (ولنأخذ في الاعتبار التشابه مع تفسير فيبر WEBER للتراكيم الرأسمالي الأولى). إذ تعثر التكنولوجيا على إمكانية تعويض نزعتها العدمية الخاصة، على إمكانية إضفاء الاستقرار على علاقات السلطة غير القابلة للسيطرة (وكذلك على التوقعات

الديمقراطية الضرورية الناتجة عن التحديث المادي) وعلى التأييد للتضحيات التي تفرض على العمال لتحقيق التراكيم الضروري لإعادة التصنيع على أساس تكنولوجيات جديدة. وعلى النقيض، لا ترى التكنولوجيا الديمقراطية في الثقافة الحديثة العلمانية الطابع، (في العلم النقدي المتحرر، وفي الأخلاق، وفي السياسة، وفي الفنون)، سوى إمكانية لغياب الانضباط، للنسبية والمقاومة الثقافية، وكلها إمكانيات تخريبية.

ولنذكر الآن المعتقدات الأساسية التي تكون هذه الرؤية التوفيقية المحافظة - الجديدة للعالم.

١- التعليم العلماني - المستنير، والاشتراكية الديمقراطية، والدولة الاجتماعية هي أخطاء ثقافة إنسانية النزعة «بنائية» أساسا (هايك HAYEK) أو «غير طبيعية» (عضوية النزعة)، حيث انها بطموحها المنفلت لترتيب المجتمع وفق تجريدات تعسفية عن العدالة والمساواة، تعارض بـ «نظمها المملة» «النظام التلقائي» الموجود والقائم على أساس الاختلافات الطبيعية، للمنافسة الحرة بين البشر والمؤسسات مثل العائلة والملكية الخاصة. وهذه الطريقة للبنائية الاجتماعية، وخصوصا في شكل «النزعة الدولاتية - الاجتماعية»، تعكّر بطرق عديدة النظام الطبيعي

والإمبيريقى للغرائز والعلاقات الإنسانية: وعموما، فإنها «تدجن» أو تضعف المقاومة وروح الصراع لدى الانسان (لورنز LORENZ)، وفي التعليم والحياة المدنية - تحبذ الطفيليين ومن هم أقل مقدرة أكثر ممن هم أكثر مقدرة وأكثر ابداعا، تعارض بالعقلانية «اليد الخفية» للسوق مشبحة بمبادرة البشر المقدامين، ومعرضة صالحهم للخطر، وفي نفس الوقت تثبط العمال جاعلة إياهم كسالى بالمعونات الاجتماعية المقدمة (الليبرالية - الجديدة)، وتثير آمالا مبالغا فيها بين مواطني الدولة الاجتماعية، لا يمكن إشباعها وتقود الناس إلى الإحباطات وعدم كفاءة الإدارة (أطروحة «عدم القابلية للحكم»)، وبأسم الوعود بيوتوبيا تقدمية، بقومية مصطنعة، تدمر أسس سلطة شرعية - الرب والكنيسة - هي الأبوية، والسلطة السياسية، ووضع منظمى الاقتصاد، وعلى هذا النحو تقضى على الخصائص الأخلاقية الأكثر أولية للانضباط، والايمان والإخلاص، والمخاطرة والمسئولية، والكفاءة وغيرها من القيم الإنسانية.

٢- وتتجسد تلك المواقف «الفلسفية»، بالدرجة الأولى، في مذهب اقتصاد خاص (ليبرالى - جديد) يحبذ الرأسماليين بالطبع ويحد من حقوق العمال والشرائح الاجتماعية الأقل حظا. ويتطلب هذا المذهب تفكيك نزعة التدخل الاقتصادى والاجتماعى لما يسمى «مجتمع الرفاهية» والعودة الى تلقائية الحسابات الاقتصادية لأصحاب الأعمال فى السوق «الحرة» القومية والدولية - وخصوصا سوق العمل، التى يفترض أنها تتمتع بمزايا

وتدعيمها ، وكذلك قواعد العملية الديمقراطية، وقواعد المشروعية وحقوق الانسان، فإن المحافظين- الجدد يحدون من المؤسسات المساواتية- الديمقراطية بطرق عديدة: بأنتهاك المبادئ الانتخابية، وبمحاولتهم أن ينظموا على نحو أبوى وإدماجى فنوى- جديد NEO- CONPONATIVISTA ، إجماعاً براجماتيا مستخدمين مؤسسات سياسية مشكوك فيها (أوفه OFFE)، ونعرقلة وتهميش نشاط النقابات والمعارضة الراديكالية، عن طريق فرز نخبوى فى عالم التعليم والعمل (المشاركة الزائفة للعمال)، وبما يفترض أنه نزاع الاحتكار ونزع الطابع الايديولوجى ، عائدین فعليا الى إعادة وسائل الاتصال، بوصفها جهازا للدعاية الايديولوجية، الى الملكية الخاصة ، الى آخره.

٤- وفيما يخص العلاقات الدولية، فإن المحافظين- الجدد أخذون فى تحسين استراتيجية سلطة سياسية واقتصادية أصبحت فطية بالنسبة للرأسمالية فبينما فى المجتمعات الرأسمالية الأكثر تطورا، وبرغم التناقضات التى تقسمها، تحرز نجاحا كبيرا التحالفات السياسية والاقتصادية (الدولة والنزعة الإدماجية- الفتوية الخاصة) والاتفاقات والتجمعات، دائما فى ظل الهيمنة الواضحة للولايات المتحدة، فإنه فيما بين هذه المجتمعات وبلدان العالم الثالث و«الكتلة الاشتراكية الحقيقية»، يدعم المحافظون- الجدد علاقات الإخضاع والمواجهة الاقتصادية، والسياسية، والثقافية إنطلاقا من تبادل اقتصادى لامتكافئ، وقروض مدمرة، وهم يرشون الشرائح الحاكمة ويدمرون الثقافات المحلية،

التكنولوجيات المعاصرة لوسائل المعلومات الدولية وبالأماكنات التى لاتنضب لتوريد سلع الاستهلاك. وهذا يتضمن: إعادة القطاعات الاقتصادية التابعة للدولة الى الملكية الخاصة، وإلغاء تقنين العلاقات التى تكبح المبادرة الخاصة، والحد من مختلف أنواع الضرائب وتدعيم انضباط نقدى، بالاقتصاد وإقرار الإستقرار فى ميزانية الدولة، عن طريق تقليل الخدمات الاجتماعية للدولة، والتحويل الى الملكية الخاصة للطب، والتعليم وغيرها من الخدمات العامة، والحد من السلطات «المنفلتة» و«اللاعقلانية» للنقابات والروابط الفردية للعمال مع الشركة (٢)، وقبول «المخاطرة» العادية لـ «مطالة جزء من السكان والنقل المتزايد للإعانات الاجتماعية الى الأجهزة المحلية والمنظمات الخيرية الخاصة، وكل ذلك مع ما يترتب عليه من تقليص جهاز الدولة والوسطاء الثقافيين (الطبقة الجديدة) الذى يزدهر مع الإرادية الاجتماعية الكينزية.

٣- يجب أن يجلب النظام السياسى تخفيفا «طبيعيا» للاقتصاد وللانفراط فى الايديولوجيا السياسية لدى الطبقة الوسطى فى المجتمع عموما. ويجب على الدولة أن تقتصر على مهامها التقليدية فى الحفاظ على الأمن الداخلى والخارجى والحماية القانونية للشروط الاقتصادية والاجتماعية الأولية («دولة الحد الأدنى»)، ورغم ذلك، فمن الضروري، فى تنظيم كهذا، وجود دولة سلطوية وقوية يمكن فيها إقامة علاقات شعبية سلطوية (هول HALL) ورغم الاعتراف بتعددية مجموعات المصالح



المجتمعات الرأسمالية الأكثر تطورا وهذه هي حالة أوروبا بالنسبة للولايات المتحدة، فى أشكال عديدة من الاخضاع سياسيا، وإقتصاديا، وثقافيا، وفى التراكم الفائق. إلا أن ذلك كله لايجرح المشاعر الوطنية للبورجوازية، بينما الأهمية المحافظة (التي تعبر عن نفسها من خلال الشركات المتعددة القومية، واللجنة الثلاثية، وإجتماعات السبعة الكبار، والنقابات الديمقراطية، الخ...)، نقر بأن آلية التضامن الطبقي مازالت تعمل على نحو مافى إدارة والحفاظ على أسلوب الحياة المتميز للغرب.

وفى سبيل إنجاز كل أهداف برنامج «الثورة المحافظة (٣)» هذا، الذى لايعنى فقط إعادة هيكلة سلطة إقتصادية وسياسية بل كذلك تحقيق الهيمنة الإيديولوجية فى العالم الراهن، يتطلب الأمر حركة دعاية قوية جدا من خلال كل الوسائل الإيديولوجية المتاحة، وبهذا الخصوص، ثمة آمال عريضة بين مجموعات المثقفين من خلال إصداراتهم ومعاهدهم العلمية العديدة («مستودعات الأفكار») (٤) ومن خلال منظمات خاصة (مثل منظمة فيجرز - VI GUERS فى الولايات المتحدة) وجميعات دينية مستعدة تماما للإعلام والتأثير فى عدد كبير من الأشخاص.

وهذا يعنى أنه بالإضافة إلى أعمال الحلول

وذلك من خلال التكتلات الاقتصادية، والتخريب المباشر، والتدخلات المسلحة. هذه الاستراتيجية التى تملك كل خصائص سياسة إمبريالية، مشروطة بشرطين: فى المقام الأول بضرورة استغلال الرأسماليين للسوق (السلع، اليد العاملة، الخ) فى محيطهم المباشر بهدف الحفاظ على المستوى المرتفع للأرباح، وللتطور الإقتصادى، ومستوى المعيشة، ملقين، بهذه الطريقة، جزءا كبيرا من الأزمة الاقتصادية الحالية على كاهل البلدان المتخلفة، وفى المقام الثانى، بضرورة توقع ومنع الثورات سواء على المستوى الاجتماعى أو القومى وزعزعة إستقرار النظم الإشتراكية، التى تعد دوما حلقة واقعية أو مفترضة فى سلسلة نزعة التوسع السوفيتية* لهذا السبب، وبهدف أكساب الدينامية لنظامهم الإقتصادى (على حساب العجز والتضخم)، يواصل المحافظون الجدد، بأقتناع متزايد، دعم سباق التسلح الذى يودى، بوظائفه المتعددة، إلى نتيجتين هامتين: اذ يصبحون المصدر الرئيسى للتكنولوجيا المتطورة، التى يتم نقلها الى القطاع المدنى، بينما، وفى نفس الوقت، يستنزفون الإقتصاد السوفيتى، الذى يشارك هو أيضا فى هذا السباق، رغم أن لديه رأسمال أقل بكثير وليس قادرا بنفس الطريقة على نقل جوانب تقدمه التقنية العسكرية إلى الحياة المدنية.

علاوة على ذلك، فإن التجذير العام للعلاقات الامبريالية- الجديدة، يودى الى عدم تكافؤ وسيطرة كبيرين فيما بين نفس

* كتب المقال قبل سقوط الاتحاد السوفيتى

الاقتصادية الليبرالية، وتجديد الحرب الباردة المناهضة للشيوعية من أجل الاستخدام الداخلى والخارجى، بمشاركة قوى سياسية واسعة فى الغرب، فإن المحافظين- الجدد يحاولون الآن أيضا إنحياز الأساس الأخلاقى والعلمى لبرامجياتية مصالحهم وأغراضهم.

وكما ذكرنا، يتضمن الأساس الاخلاقى مضامين ذات نزعة تقليدية صريحة، لكنه كمنهج يقدم أشد الوسائل التقنية تطورا. فمن خلال الحزب أو القنوات المستقلة أو التابعة للدولة، وكذلك باستخدام جميعات أصولية ويمنية (أهمها حركة «الأغلبية الأخلاقية» الأمريكية)، بشن حملات أخلاقية فى كل وسائل الإعلام: يجرى تفسير الفقر والبطالة باعتبارهما نتيجة لكسل والطفيلية التى تحفزها الوسائل الإجتماعية، أما نشاطات المفكرين الأحرار، ودعاة السلام، وأنصار الحركة النسائية، وأنصار الجنسية المثلية، وحركة البيئة وغيرها من البدائل، فتوصف بأنها إنحرافات إجتماعية أو على الأقل بأنها تهديدات للنظام السياسى والأخلاقى، ويجرى إيقاظ أنماط سلوك لاعقلانية، ودينية (نشاط الوعاز ج. فوليل j.fowell، وب. روبرتسون p.robertson، وج. باكسر J.BARKER، وغيرهم.) ويتم تنشيط النزعة الوطنية القومية، والعنصرية الكامنة، والتعصبات ضد العمال الأجانب وشعوب الأطراف limrtiofes، ويجرى تمجيد الفردية، والحياة الخاصة للعائلة، وأخلاق العمل والجماعة، وتعتبر العدالة الاجتماعية تحايلا بيروقراطيا على الجماهير، وتشن حملات متصلة ضد الإجهاض، وتأييدا للصلاة فى

المدارس أو من أجل تنظيف الكتب الدراسية من أى مضمون مضاد للدين.. ويقارن ميشيل نوفاك michel novak فى «لاهورت الرأسالية» وجورج جيلدر george gilder فى «الغنى والفقر» الحريات الاقتصادية والسياسية بالصفات المسيحية، حتى أن جليدر يدرج الإعانات للأمهات العاملات والاباحية الجنسية بين أسباب الأزمات الاقتصادية خلال السبعينات. وفى العلاقات الدولية، يملك المحافظون معايير أخلاقية مزدوجة، لأنظمة العالم الثالث (الكونغرو، وكوريا الجنوبية، وتشيلي، وغيرها) ولنظم التحرير الثورية القومية، التى يعتبرونها «شمولية»، ويطالبون بإسقاطها. وتتمتع مواقف كنيسة فويتيلابوزن هام فى تطوير المشاعر المعادية للشيوعية واللاهوت المحافظ والأخلاقيات التقليدية. وعلاوة على ذلك، فإن القوالب النمطية المناهضة للشيوعية لديها الآن ميل عام للتوسع بآعتبارها معيارا للقيمة لكل حقل الثقافة، بحيث أن مقولة «العدو» فى النزعة المحافظة، تتوسع بمعنى مزدوج. (٥)

ومن ناحية، فإن علم أنساب أعداء المجتمع «الحر» أو «المفتوح» تضم الآن، فى اتفاق تام مع المعايير المحافظة، كل الأشكال الأخلاقية ومجمل ماضى الديمقراطيات الاجتماعية والفكر النقدى الاجتماعى، الذى يضم أيضا، الشك المعرفى الجذرى للتنوير، والعلمانية والمساواتية، المتهمه بأنها الأصل المفهومى للنزعة الشمولية الحديثة وللإرهاب (والمناظرات والمقاومة تجاه الاحتفال القريب بعيد الثورة الفرنسية، هى مثال على ذلك). ومن ناحية ثانية، فإن الشيوعية

الحداثة «التي تطور نقدا جذريا لمفاهيم «يوتوبيا» و«شمولية» التقدم، والعقل الكلى والخطاب المنهجي بوصفها نظرية ايديولوجية في المجتمع مابعد-الصناعى، مبينة بمثالها ذاته (تلك الفلسفة)، انتصار الفكر المفتت (ليبوفيتسكى lipovetski)، «الواهن» والذي أصبح عتيقا بسرعة والذي كانت قد أوضحته من قبل الثقافة الإلكترونية المعممة على مستوى الحياة اليومية. وفى نفس الوقت، تصبح بعض المذاهب الأنثروبولوجية شعبية جدا، فى مجال عالم الطبائع -eto-logia والبيولوجيا- الاجتماعية، حيث الكائن الإنسانى والاجتماعى، وحتى أسمى عملياته الأخلاقية من حب وإنكار للذات تجد شرحا بتعبيرات التفاوت بين الجينات والاختيار (الطبيعى)، والعدوانية والمراتبية. (٦) كذلك تقبل باهتمام الدراسات السوسولوجية التى تثبت التفاوت الكامن للذكاء الإنسانى. وتستخدم، كأطروحات سوسولوجية مشروعة اجتماعية وسياسيا، أطروحات الانتفاء العام للنظرية النقدية الماركسية للمجتمع، والحاجة إلى مؤسسات سابقة على العقل للحفاظ على النظام الاجتماعى، والافتقار إلى الإنضباط وصعوبة حكم الديمقراطيات الاجتماعية المعاصرة، والأطروحات حول جهاز الدولة، بأعتباره نظاما لبيروقراطية الطبقة الجديدة، وحول المثقفين بأعتبارهم «كهنة السلطة» وبأعتبارهم طبقة طفيلية من المؤدلجين. وطبيعى أن «حداثة الأفكار القديمة» والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية، شعبية جدا، ولها نجوم من أمثال هاينيك haynek وجميعته «مونت بيليرين» (٧)

والاشتراكية، بأعتبارهما تهديدات «للعالم الحر»، لم تعودا توصفان فقط بأنهما «أخطاء ذهنية» (هايك) أو بأنهما خصمان سياسيان توجههما مصالح اجتماعية محددة وأطروحات مفهومية، بل يشار إليهما على الدوام بأعتبارهما أخلاقيا (وكذلك سيكو-بيولوجيا) حالات شاذة أو حالات خطيئة لـ «إمبراطورية الشر» و«الإلحاد»، تهدد أساسا أقدس القيم الإنسانية. وذلك الاضفاء الشامل للطابع الأخلاقى على النزاعات السياسية بل وتحويل الخصوم إلى شياطين يحذ حتما كل أنواع التحيزات الاستنفارية، والعنف، والافتقار إلى المعقولة فى العلاقات السياسية سواء داخلية أم دولية، لكن كذلك فى مجال أوسع بكثير من سياسة «علاقات رامبو»، تمتد من العمل إلى الرياضة، ويصبح فى النهاية خاضعا للبنية الاقتصادية فى نوع معين من الحضارة هدفه هو اخضاع الطبيعة وكذلك إخضاع الإنسان.

إن التوحيد المحافظ- الجديد بين روح النزعة التقليدية وروح التكنوقراطية، هو ابتكار ناتج عن عدم الرضا تجاه الامكانية الوحيدة الباقية للتوكيد الذاتى الأخلاقى. ويحتاج، لكى يصبح أكثر اقناعا لكلا الجانبين، إلى أسس علمية. وأحد جوانب القوة المحافظة الراهنة، هو واقع أنها تحقق فعلا هذا التماهى identificacion المزدوج، التقليدى والعقلى، مع التسليم بأنها، فضلا عن الحصول على التأييد الدينى، تلقى تأييدا أو على الأقل مواقف يمكن اعتبارها تأييدا، من جانب عدد من اتجاهات الفكر الفلسفى والعلمى المعاصر. وعلى هذا النحو، فإنها تستفيد من جزء من «فلسفة مابعد-

mont pelerin ، وم فريدمان -mfried-
man والاقتصادى الحسابى ج. ديبرو -g. de-
breu ، وكذلك عدد من المستقبلين التكنو-
تفاؤلين، الذين ينفون نظرية كينز نقطة نقطة،
كما ينفون الدولة الاجتماعية، والذين يؤكدون
أن «اليد الخفية» للمشروع الحر،
والسوق و الديمقراطية التحبوية (فى
تنويعه على الديمقراطية الإدماجية - الفئوية -
الجديدة) هى الأسس الوحيدة الممكنة لمجتمع
حر.

هذه الرؤية المحافظة- الجديدة
للعالم، بكل الاختلافات والتناقضات
التي تنطوى عليها، ليست اليوزم
مجرد إبداع نظرى أو برنامج سياسى.
بل إنها فى طريقها لأن تصبح، كما
ذكرنا، موقفنا وروحنا، يعبر عن،
ويضفى المشروعية على، ويؤسس
العلاقات الأساسية، الاقتصادية،
والسياسية، والثقافية فى المجتمعات
الرأسمالية المركزية ومن خلالها فى
العالم كله، وفى منافسة مباشرة
وتوازن غير مستقر مع النظم ذات
التوجه الإشتراكي، تبرز بوصفها
الإطار الروحي لبنية سلطة طبقية
وفى نفس الوقت، بوصفها «وعيا
عاما» للشعوب يمكن، وفقا له، تهريب
قيام نسق من القيم والمفاهيم بشن
صراع ناجح من أجل أن يتحول إلى
إيديولوجية مهيمنة لحقبة معينة.

(ج) الأسباب

كيف استطاعت نزعة المحافظة- الجديدة

اكتساب كل هذه الأهمية بينما فى أواخر عقد
الستينات، كان نقاد اليسار السائدون
والمنظرون البورجوازيون، وهم فاقدو الحماس
فى تلك اللحظة، يعتقدون أنهم يشهدون فى
التيارات المعاصرة للحضارة والثقافة آخر
لحظات الرأسمالية، وخصوصا آخر لحظات أى
نوع من أنواع النزعة التقليدية؟

إن شرح هذا التحول المفاجئ، هو مهمة
بالغة التعقيد تتطلب، خلال زمن طويل،
افتراضات وإبحاثا نظرية من وجهات نظر
متعددة. لكننا نود أن نشير هنا- وفى ذهننا
بالدرجة الأولى ضرورة التوصل إلى نتيجة فى
البند (د) من نصنا هذا- فقط إلى ثلاثة
خطوط للأسباب الأولية المحتملة وعلى كل حال
للأسباب التراكمية، لظهور وتطور نزعة
المحافظة- الجديدة.

١- خلال عقد السبعينات اتضح نوع
خاص من الأزمة الاقتصادية (هو الركود
التضخمى stagflation). ولم يكن
بالامكان السيطرة عليها بواسطة السياسة
الاقتصادية للدولة، بينما لم تكن الأحزاب
الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية، وبالأخص
الحزب الديمقراطى فى الولايات المتحدة، تملك
برنامجا مناسباً. وقد استخدمت المعارضة
اليمينية تلك الظروف فى كل السلطات
المتروبوليتانية، معبرة عن نفسها فى نقد
عنيف لـ «دولة الرفاهية» وللإشتراكية بوصفها
المسئول الأساسى عن بداية الأزمة، وبرنامج
للسيطرة عليها على أساس تجديد المفاهيم
الليبرالية للاقتصاد، والسياسة، والثقافة، التى
كانت قد أعدتها الدوائر المذهبية خلال السنوات
الأسبق. أما أوجه عدم الرضى، والمخاوف
والإحباطات، وخصوصا نزعة الطبقة

الوسطى، والتي دعمتها المشاعر «الوطنية» التي جرحتها سلسلة من الاحداث الدولية (العلاقات الاستراتيجية مع الاتحاد السوفيتي والتي يفترض أنها مضطربة، ومسألة السفارة الأمريكية في طهران، وحرب المالوين)، فقد عملت لصالح اليمين، الذي قدم نقدا يبدو مقنعا لعلاج وضع اقتصادى وسياسى فى حالة خطرة فعلا. وعلى هذا النحو، سلم النخبون فى الولايات المتحدة، وألمانيا، واليابان، وفى فرنسا فيما بعد، سلموا السلطة للمحافظين من أجل «إدارة الأزمة» بينما أصبحت الايديولوجيا الليبرالية- الجديدة والمحافظة- الجديدة تشكل جزءا هاما من «الوعى العام» بمبادئها الاقتصادية فى «المنافسة الحرة للكفاءات» وتزايد الأرباح، وكذلك بالنماذج السياسية والأخلاقية المناظرة القائمة على مناهضة المساواتية والتضحية بالحلقات الأضعف فى الطبقة العاملة وفى غيرها من المجموعات الاجتماعية الأشد فقرا. وعلاوة على ذلك، فإن حقيقة احتفاظ المحافظين الجدد بمزاياهم فى المجتمعات الرأسمالية المتروبوليتانية خلال عقد الثمانينات، منذ أن كسبوا الانتخابات مجددا، كاسرين على هذا النحو (باستثناء فرنسا) الدورة العادية لتبادل الأحزاب فى السلطة («حركة البندول»)- هذه الحقيقة هى نتيجة للنجاح النسبى «لعلاجات الصدمة» الوحشية بدرجة أو بأخرى والتي نفذها المحافظون- الجدد فى إقتصادات المجتمعات الرأسمالية الأكثر تطورا. وبالفعل، فإن الحقيقة هى أن السياسة الاقتصادية الليبرالية- الجديدة قد إنتصرت كذلك خلال العقد الأخير حين نجحت، بثمن باهظ باهظ بدرجة غير مقبولة بالنسبة للاشتراكيين) من

التضحيات الاجتماعية والبيئية، وخصوصا على حساب علاقات دولية تزداد تدهورا بشكل عام وعلى حساب الوضع فى العالم الثالث فى خفض التضخم، والركود، وبدرجة أقل البطالة وفى زيادة التراكم وحفز روح المشروع الضرورية لاعادة التصنيع على أساس تكنولوجيات جديدة بهذه الطريقة، احتفظ المحافظون- الجدد بجزء كبير من ثقة من إختاروهم، أملين ان يحلو أو على الأقل أن يخففوا تلك المشكلات، ورضا الشعب بهذا النجاح للسياسة الاقتصادية (مع وهم رأسمالية شعبية «تشاركية» تقام هنا أو هناك) مازال أقوى من القلق على الضحايا (فى حالة وجود معرفة الضحايا) الذين كانوا هم ثمن تلك النجاحات قوميا ودوليا (٨) وبالتالي، فإن الوضع الآن كالتالى: يبدو لكثير من الناس، وخصوصا لأولئك الذين ينتمون الى الطبقات المتوسطة التى تزداد عددا ونفوزا، أن الحكومات المحافظة قد قضت على أصعب جوانب الأزمة الاقتصادية (وهى أزمة يجرى ربطها باستمرار بالحكومات السابقة الاشتراكية والديمقراطية، وفقا للتفسير الذى مازال سائدا للمحافظين- الجدد) بينما لا توجد، فى نفس الوقت، مؤشرات كافية بين الشعب ولا إدراك بأن عودة الاشتراكيين أو الديمقراطيين الى السلطة قد تأتى بشئ أفضل أو أنها حتى لن تجعل العالم يسقط من جديد فى الأزمة التى يبدو أنه يخرج منها. (٩)

٢- لا يمكن شرح ميلاد وبقاء نزعة المحافظة الجديدة مالم نأخذ فى اعتبارنا شرط أنه قبل وخلال الازمة الاقتصادية فى السبعينات، وقعت أيضا أزمة عميقة فى ممارسة

نزعة المحافظة الجديدة لا تقدم بديلا حقيقيا بالنسبة لنمط الحضارة ، وللنظام الرأسمالي، وللمسارات التي تقود البشرية الآن عبر دروب جانحة، ولا يمكن الحديث عن هذا البرنامج الا بوصفه بديلا بمعنى كونه محاولة لاستبدال عقلانية بيروقراطية عتيقة بتكنولوجيا بعقلانية تكنوقراطية اقوى ، أقدر على توجيه نفس الواقع الاجتماعى المغترب.

ومن ناحية أخرى، فإن الوضع اسوأ من ذلك بالنسبة للحركة الشيوعية فى بلدان «الاشتراكية الواقعية» وفى الغرب- وهو وضع يعد جزئيا فقط، نتيجة «شروط موضوعية» بالغة الصعوبة أدت إلى ميلاد كل الثورات الشيوعية حتى اليوم. فنتيجة للإلتزام العميق بممارسة الجمود العقائدى والاستالينية، والضعف المزمّن للنظام السياسى والاقتصادى، والافتقار الى برامج التطوير التى يجب أن تكون على مستوى الطبقة العاملة الراهنة والامكانات الأكبر لعصرنا، فإن الحركة الشيوعية اليوم أقل جاذبية بكثير، خصوصا فى المجتمعات الأكثر تطورا. لدينا الآن عبء بالغ الضخامة من الاخفاق وفراغ الأفكار لدى اليسار بالنسبة للمستقبل- يترك مجالات واسعة أمام اليمين لينشط بين الجماهير الساخطة، والخائفة، والمرتبكة.

٣- فى تحليل ميلاد وفترة بقاء نزعة المحافظة- الجديدة عادة مايجرى نسيان الحلقة الثالثة: ألاهى العلاقات بين مجتمعات الغرب المتطورة والمجتمعات المتخلفة صناعيا فى العالم الثالث منذ نهاية الحرب. وبداية تصفية الاستعمار، وقد كانت هذه العلاقات على الدوام علاقات عدم تكافؤ،

ورؤية الإشتراكية، وجرت فى كل من هامشى الحركة الاشتراكية، الهامش الاشتراكى - الديمقراطى والهامش الشيوعى. فلم تكن الاشتراكية- الديمقراطية قادرة على الاعتراف فى الوقت المناسب ببقربتها ومنع هذه البقرطة بأن الأزمة الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، كانت لها أبعاد قومية ودولية. كذلك لم تكن قادرة فى المقابل على تقديم نموذج جديد للحضارة يتمشى مع الامكانية الأخلاقية والتكنولوجية للمجتمع المعاصر- نموذج جديد كان موضع بحث واع ودؤوب بدرجة أو بأخرى من جانب مجموعات معينة من المثقفين الهامشين منذ الفورات الطلابية لعام ١٩٦٨ وحتى الحركات الاجتماعية الجديدة لوقتنا الحاضر. وواضح أن الاصلاحية الاشتراكية والديمقراطية فى الغرب، فى عملية تآكل «للظليعة» الثقافية و«إخماد للطاقة الطوباوية» قد بقيت بدون برنامج بديل حقيقى، يمكنه أن يتصدى لتحدى ولتهديدات هذا الزمن ، زمن الثورة العلمية- التكنولوجية وزمن استيقاظ روح الانعتاق الاجتماعى- وربما يعنى هذا أنها تظل وليس لديها فكرة عن تطور اجتماعى توجهه معايير نوعية الحياة والتضامن أكثر بكثير مما توجهه المعايير الاقتصادية للكم والاستهلاك والسلطة (ج. روفولو g.reuffolo ، وب جلوتر p.glotr)

وعلى نقيض ذلك الفراغ فى الأفكار من جانب اليسار، فإن المحافظين يطرحون برنامجا «جديدا» ، يقدمونه على أنه بديل بمعنى حقبة مابعد- الحداثة ويتلقاه اليوم كثير من الناس (فى فوضى الأفكار السائدة). ورغم ذلك، فإن

وضع النخبة المحافظة، وخصوصا إمكانات سياستها السلطوية والشعبوية، فى إعادة توجيه السخط وردود الفعل «الدفاعية» ضد الأجانب، بما فى ذلك كراهية الأجانب والعنصرية، خصوصا ضد أبناء الجنوب الملونين. وفى هذا الخصوص، فلن من الواضح أيضا أن استسلام الاستراتيجية الاشتراكية فى الغرب، بلغ حدا دراميا مع التسليم بأنها لا تكاد تضع فى حسابها علاقات الشمال- الجنوب كعنصر جوهري للتفكير بصدد فرض الاشتراكية فى الغرب وفى العالم، وكذلك المعارضة الممكنة للسياسة المحافظة- الجديدة.

دعونا نخلص الآن الى النتيجة: أن الاسباب الرئيسية لظهور واستمرار نزعة المحافظة - الجديدة فى عصرنا ، هى بداية واستمرار تأثيرات الأزمة الاقتصادية فى السبعينيات، وغياب الحلول الاشتراكية لتلك الأزمة وعموما لأشكال الحياة الجديدة للبشر، والنزاعات التى تزداد احتداما بين العالم المتطور والعالم المتخلف، فى إطار الشرطين الأولين، تنتج رد الفعل المحافظ بين أغلبية سكان البلدان المتطورة.

(د) الآفاق

لنتقل الى السؤال الأخير: ماهى الآفاق. الأخرى للموجة الحالية الايديولوجيا والسياسة المحافظة- الجديدة؟ سنجيب على الفور قائلين أن هناك احتمالات كبيرة لإستمرار هذه الموجة لزمان طويل نسبيا. هذا هو استنتاجنا الذى يقوم أساسا على تقدير بأن من

واستغلال، وسيطرة وتوتر بدرجة أو بأخرى. إلا أنه خلال إعوام السبعينات، نشأت فى علاقات العداء هذه سلسلة من الأوضاع الجديدة أثارت زعزعة متزايدة وخوفا فى الغرب، بين الطبقات السائدة وكذلك بين الشعب (وبالطبع، أثارتها وسائل الاعلام)، وذلك بسبب احتمال فقدان الأوضاع المتميزة والتى تدر دخلا فى مستوى المعيشة كنتيجة ترجع أساسا إلى العلاقات الدولية القائمة بين الشمال والجنوب. وهذه الأوضاع، بين اوضاع أخرى، هى التالية: مطالبة الشعوب المتدنية التطور بأسعار أكثر عدلا مقابل موادها الأولية ومصادرها للطاقة (مثلا، أزمة البترول فى مطالع السبعينات) ومطالبتها عموما بنظام اقتصادى عالمى جديد، وتحذر ثورات عديدة ديمقراطية وقومية فى الاتجاه الاشتراكى، مع أوبدون الدعم السوفيتى (كوبا، إثيوبيا، أنجولا، نيكاراغوا، تشيلى، الخ...)، إتساع نطاق الأصولية الإسلامية واحتدام صراع الشرق الأوسط، الذى يعرض للخطر إمدادات البترول للغرب، من ناحية، ومن ناحية أخرى يهدد وضع إسرائيل ومن خلال هذا البلد، مصالح الولايات المتحدة فى هذه المنطقة: (١٠) إنقطاع التطور الاقتصادى لكثير من مجتمعات العالم الثالث (بسبب الحرب، أو الحكومات السيئة، أو الديون المفرطة)، مما يؤدى الى انخفاض التجارة بين الشمال والجنوب وفى نفس الوقت، الى زيادة فى هجرة العمال من الجنوب (بما فى ذلك عمال جنوب أوروبا) إلى البلدان الرأسمالية الأكثر تطورا، والتى تعاني بالفعل من البطالة. هذه وغيرها من أشكال التوترات الدولية فى ظروف أزمة اقتصادية فى الغرب، تدعم

غير المحتمل بدرجة كبيرة أن تختفى من الوجود فى مستقبل قريب الأسباب الثلاثة الأساسية السالفة الذكر لأصل نجاح نزعة المحافظة- الجديدة حتى اليوم.

فى المقام الأول، فإن الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية ذات الطبيعة الهيكلية فى المجتمعات الرأسمالية المتطورة بديهية فيما يتعلق بعدم الاستقرار الدائم لكل المؤشرات الاقتصادية تقريبا، والتى تظل على الدوام على حافة انهيارات جديدة، مما هو معروف جيدا لكل الحكومات (ولمختلف أجهزة الإدارة) وكذلك لجزء من رأى العام. فى مثل هذه الظروف غير المستقرة، يصبح أكثر من محتمل أن يواصل جزء من الهيئة السياسية لتلك المجتمعات اختيار جانب الثقة لبرجماتية فى التيار الاقتصادى للبرالية- الجديدة، وكذلك فى الاستراتيجية العامة للمحافظة- الجديدة. بسبب الأمل المفهوم فى أن تستمر وتدعم النتائج المواتية التى (وفقا لمعايير القيمة السائدة) حققها حتى الآن. هذا التنبؤ راسخ بالتأكيد طالما لم تتغير الشروط الأساسية، وهذا يعنى دوام إفتراضين على الأقل: أولا، ألا تتكرر قريبا أزمة ذات شدة مماثلة لأزمة السبعينات، يمكن بالطبع أن يتهم المحافظون- الجديد بالتسبب فيها، وثانيا، ألا تقدم القوى الاشتراكية فى العالم قريبا استراتيجية جديدة مقنعة للتطور الإجتماعى تبلغ الجماهير وتتيح للقوى الاشتراكية أن تستعيد فى الظروف الراهنة الثقة الضائعة من جانب المجموعة السياسية الحاسمة. واليوم، لا يبدو هذان الافتراضان محتملين. ففى المقام الأول، لا توجد مؤشرات على أن عدم الاستقرار الاقتصادى الراهن،

برغم عمقه واستمراره، يمكن أن يؤدي قريبا إلى أزمة اقتصادية درامية- وذلك بفضل الضوابط العديدة الحكومية، وبين الحكومات، والضوابط الخاصة العابرة للقوميات، وعوامل فرض الاستقرار (بنجاح كبير حتى الآن) التى تؤمن هذه الرأسمالية الليبرالية ضد مثل تلك الأخطار.

وفى المقام الثانى، لا توجد مؤشرات جدية على قرب استعادة المقدره الاستراتيجية والتكتيكية من جانب الاشتراكية الديمقراطية واليسار السائد فى الغرب وفى العالم عموما، فرغم كل المحاولات لإقامة برامج تتمشى مع أساليب الحياة الجديدة للطبقة العاملة، فإن الاشتراكيين الغربيين مازالوا ينفذون سياسة مفرطة فى تقليديتها، وفى برامجيتها، ولا تمتنع بالخيال فى العلاقات الحزبية، وتفتقر الى قوة خيار انسانى مناقض لتطور ومازق الثورة العلمية- التكنولوجية الراهنة وفى مواجهة القطيعة الرجعية للمحافظين الجدد مع ثقافة العصر الحديث التى تقدم على أنها أكبر شرور العالم المعاصر. أما فرص اليسار الشيوعى فى الشرق وفى الغرب فى الاستعادة السريعة للمكانة وللسلطة السياسية والاقتصادية فهى فرص قليلة. وحتى «بيرسترويك» جورباتشوف، فإن عليها، فى أفضل حالات بقائها، أن تواجه خلال سنوات عديدة نضالات قاسية وخطرة من أجل أشد أشكال الفعالية الديمقراطية والاقتصادية أولية، مع نزاعات حتمية (داخل الحزب، ونزاعات اجتماعية ودولية)، ومساومات، وتراجعات، كل هذا بشكل مستقل عن النتائج الايجابية المحتملة ل

« تهذبة » بين الكتلتين (وذلك ليس مؤكدا بدوره، لأنه ليس مقبولا « من حيث المبدأ » بالنسبة « للصقور » الغربيين المناهضين للشيوعية، مع احتمال تدعيم مكانة الاتحاد السوفيتى فى العالم) لن يكون كافيا لعودة سريعة لقوة الشيوعية السابقة بوصفها نموذجا لتطور البشرية. وفى الواقع، يجب أن يظل ماثلا فى أذهاننا أنه حتى أشد الإصلاحات راديكالية للأنظمة الحالية « الاشتراكية حقا »، لا يمكن أن يفيد سوى فى تجاوز تأخر تاريخي والحق بالحاضر بالنسبة لكثير من المضامين المدنية للمجتمعات الرأسمالية المتطورة الحالية- وبالتالى، فبأن من الصعب أن تصبح هذه الإصلاحات نماذج ليسار فى الغرب ولرسالته فى طرح مستوى أرقى للتطور الاجتماعى.

وأخيرا، فليس ثمة أى تحسن وشيك فى علاقات الشمال- الجنوب، وهى الخط الثالث لأسباب الموجة المحافظة- الجديدة. بل على العكس، فمن المتوقع فى هذه العلاقات حدوث فجوة أشد عمقا فى ظروف حياة الشعوب المتطورة والمتخلفة مع نزاعات فيما بينها. وهذه النزاعات الحتمية الاقتصادية، والسياسية، والثقافية بين الرأسمالية المتروبوليتانية ومحيطها الفقير، المحطم، ألمهان، يحتمل أن تشير، إذا ظلت الشروط الأخرى ثابتة (أى عدم استقرار وضعف اليسار)، حالة توتر اجتماعى دائم، وتدخلات امبريالية، وفرصا مواتية للديماجوجيا الشعبوية المحافظة ضد « الخطر الخارجى » فى البلدان الغربية.

إن أحدا قطع آثار نزعة المحافظة- الجديدة، وفى نفس الوقت، أحد أصولها، يتمثل فى أنه ليست البورجوازية فقط، بل كذلك

جزء هام من الجماهير العاملة فى المجتمعات المتطورة، ليسا على استعداد للتضامن فعليا مع شعوب العالم الثالث وهذا يعنى أنهما على استعداد لقبول (أو على الأقل لتجاهل) اخضاع، واستغلال، وافقار هذه الشعوب إذ أن مستوى معيشتهم المرتفع يعتمد على ذلك (ولانرى كيف يمكن أن يكون الأمر على نحو آخر). يبدو اليوم أن الاشتراكيين مثلهم مثل الشيوعيين فى الغرب لا يحركون ساكنا ازاء الاستيعاب الأخلاقى والمادى للعمال فى نظام السيطرة الدولى، بل إنهم يتوافقون معه حتى لا يتم محوهم من الخريطة السياسية. وفى ختام هذا النص نشير إلى أن تحليلا أكمل لمسار وآفاق الايديولوجيا والسياسة المحافظة الجديدة يجب أن يتناول على الأقل الجوانب الثلاثة التالية لهذه المشكلات:

١- فى الايديولوجيا الليبرالية- الجديدة، من الممكن، انطلاقا من وجهة نظر النقد التقدمى، إظهار عدة جوانب ضعف فى افتراضاتها النظرية (فليست مقنعة ولا متسقة، بل ديمائية) بالنسبة لطبيعة الانسان، والمجتمع، والثقافة التقنية، الى آخره.

علاوة على ذلك، وهذا أكثر أهمية بالنسبة للفعل السياسى، ثمة فى الايديولوجيا والسياسة المحافظة الجديدة، تشخيصات خاطئة أو ناقصة للحالات الامبريقية للمجتمع المعاصر (مثلا، عدم فهم طابع اللارجعة التمدنى لكثير من مكاسب «الدولة الاجتماعية»، كما يبين م. هارننجتون m.harrington بالنسبة للولايات المتحدة فى عمله «المحافظون



الجدد» وكذلك ثمة تضاربات فى نفس أفعالها الاقتصادية والسياسية (مثلا، نزعة التدخل القوية للدولة فى حقل البحث العلمى، وفى حماية فروع معينة من الاقتصاد ومن السوق الخارجية، والنمو الضخم لميزانية الدولة والعجز فى الولايات المتحدة (١١). وهاتان المجموعتان من الأخطأهما، فيما يبدو، نظريتان أو عيبان مستمدان من نزعة المحافظة- الجديدة، لكنهما تسهمان على نحو متناقض، رغم ذلك، فى توكيدها اللحظى- المجموعة لأولى لأنها خادعة لمستقبلى الرسالة الأسوأ حظا من خصومهم، والثانية لأنها تلغى على نحو منافق الراديكالية البلاغية للمعايير التى يستحيل تحقيقها بسبب الابقاء، سرا، على عناصر لا يمكن تجنبها لنزعة تدخل الدولة و للبرامج الاجتماعية فى المجتمع المعاصر (١٢) وحين يؤخذ فى الاعتبار، بالاضافة الى شرح هذه «اللاعيب»، ضرورة شرح التضحيات الضخمة الاجتماعية والبيئية، وبعض الأخطاء المباشرة للاقتصاد الليبرالى- الجديد (خصوصا فى التجارة وفى علاقات إقراض)، وكذلك العمل الرجعى الثقافى والسياسى المحافظ الجديد (الخط الدائم من قيمة الثقافة، والرسائل الأخلاقية الرجعية، وإتساع العنف والأمراض الاجتماعية عموما)، يتضح مدى إتساع وإهمال حقل النقد التقدمى الضرورى لتغيير الوضع السياسى والروحى الراهن.

٢- ستصبح بعض الانتقادات ايدولوجية بصورة سطحية وغير مقنعة اذا نفت واحدا فواحدا كل التشخيصات التى وضعتها نزعة المحافظة الجديدة، اذا أرادت، على سبيل المثال،

تجاهل هذا الجزء من الحقيقة عن العالم الراهن والذى لاحظته الليبراليون- الجدد والمحافظون- الجدد. ان فورة نزعة المحافظة- الجديدة ليست، كما يجب أن يكون واضحا أمام أى مراقب نزيه، نتيجة لمجرد أزمة عميقة فى المجتمع الراهن ولعجز الاشتراكية فى نفس الوقت عن التغلب على تلك الأزمة، لكنها أيضا نتيجة لحقيقة أن المحافظين كانوا أسرع، أو على الأقل أشد صخباً، فى وضع تشخيص لبعض الاعتلالات الواضحة للمجتمعات الرأسمالية الحالية. وأكثرها دلالة هى: بقرطة وفوضى الدولة، والعراقيل التى تضعها الدولة أمام النشاط المستقل لعناصر إجتماعية عديدة، وصعوبات «القابلية للحكم» فى تلك الشروط. وبالفعل، فإن الانتقادات للنزعة الدولاتية وللبيروقراطية، وكذلك «لدولة الرفاهية» (١٣) كان بالامكان العثور عليها فى الفكر الأسمى للأحزاب المتحررة التفكير فى الاشتراكية وفى برامجها، وفى نظريتنا اليوغوسلافية فى التسيير الذاتى، لكن هذا النقد كان من طراز مذهبى وفى الممارسة السياسية ناقصا، وغير فعال، وليس مخلصا تماما على الدوام، ولهذا السبب فقد مصداقيته أمام رأى العام بعد فترة معينة. هكذا حدث أن تولى المحافظون، أى التكنوقراطيون والتقليديون، الدور الرئيسى فى نقد الدولاتية البيروقراطية والافراط فى تقنين الحياة الاجتماعية، محرزين على هذا النحو قبولا كبيرا لدى الجمهور- خصوصا لأنهم قدموا بصورة زائفة وفى وقت واحد، نزعة الدولاتية والبيروقراطية (موحدين) اياهما ايدولوجيا مع «دولة الرفاهية» وفيما بعد مع الاشتراكية

باعتبارهما الأسباب الرئيسية للأزمة الاجتماعية العامة في أيامنا. ويستخدم المحافظون- الجدد هذا النقد من أجل إبراز النتائج التي تناسبهم- فهم، مثلاً يعارضون «الدولانية الاجتماعية» البيروقراطية بمصالح المبادرات الخاصة ومصالح التكنوقراطيين فقط، ووليس بمصالح المبادرة الحرة لعناصر إشترائية أخرى، وبالدرجة الأولى، بمصالح التسيير الذاتي للتجمعات العمالية، أو أنهم بالأحرى، ينتهبون إلى أن من الضروري إعادة توزيع جزء من العائدات الاجتماعية التي تتلقاها الدولة كضرورة لتقليل الضرائب والنفقات الاجتماعية لمصلحة تراكم رأس المال. ومن هنا، فإن الانتقادات التقدمية لا يمكنها التقليل من أهمية حقيقة أن المحافظين- الجدد يدركون بعض التشوهات والاختلالات الهامة في العالم المعاصر حين يهاجمون نزعة الدولانية، والبيروقراطية، والافراط في التقنين، وكذلك يجب عليها ادراك حقيقة أن المحافظين- الجدد يفعلون ذلك بطريقة أحادية الجانب وبصورة ايديولوجية.

٣- حين فقدت القوى الاشتراكية والديمقراطية عموماً مبادراتها وهيمنتها الايديولوجية في المجتمعات الرأسمالية المتروبوليتانية، كان أحد أسباب ذلك أنها لم تستطع أن ترد بكفاءة على سؤال «كيف يمكننا الخروج من الأزمة»، وبالتالي، حدث لجزء من هذه القوى شئ يحدث دائماً لمن يفقدون المبادرة والسيطرة الاجتماعية: فتحت ضغط النسق الجديد لعلاقات الرأي العام ونماذج الحكم، وحتى على حساب الضرورات الانتخابية، بدأ ليس فقط في قبول حقائق

الايديولوجيا السائدة، بل كذلك في قبول النقاط البرنامجية التي هي جوهر رؤية العالم لدى الليبراليين- الجدد والمحافظين- الجدد. وهذا يحدث اليوم للأحزاب التقدمية الغربية: إذ أنها تأخذ شذرات أو كتلاً كاملة من أفكار وجهة النظر المحورية لخصومها، مثلاً، العقلية ذات الأساس التكنوقراطي، والإنهيار بالسوق باعتبارها أساس النظام الاقتصادي، ومبادئ المذهب النقدي في ضرورة تخفيض الضرائب والحقوق الاجتماعية، واتفاقيات التسليح، وعدم الثقة وعدم التفهم تجاه مشكلات البلدان النامية... (١٤) وهذا شرط آخر يبين أبعاد الأزمة الراهنة للييسار الاشتراكي والليبرالي واحتمال أن تستمر الموجة المحافظة- الجديدة على حالها عقداً آخر من الزمن، وهذا ما اشار اليه على وجه الدقة ب.لوش p.losche وب.شولتز p.w.schute فيما يخص معارضة المحافظين والتقدميين في الولايات المتحدة، اذا سلمنا أنه في شروط «إنفصام إئتلاف» الصفقة الجديدة القديم بين النقابات، والمثقفين الانتقادين، والأقليات» تبدأ كثير من نقاط برنامج وسياسة الديمقراطيين الأمريكيين في التقارب من أو التطابق مع نقاط المعسكر المحافظ. فمثلاً، ابلاضافة إلى التقبل المذكور آنفاً للبرنامج المحافظ، فإن «الاجماع المحافظ يتضمن بالطبع، تأخير أو حتى نزع الأهلية عن مجالات اشكالية معينة من قبيل: الفقر في أمريكا، وعجز ميزانية الدولة، وعجز الميزان التجاري، والعديد من فضائح الادارة الحالية». ويستنتج هذان المؤلفان، بالتالي، أنه بسبب ذلك «الاجماع»

ولا يمكننا التعمق فى فحص هذا التأكيد الأخير، لكن من الحتمى تقريبا أن يبلغ هذا الميل حد التغفل فى حالة تأكد فرضية الموجة المحافظة- الجديدة، إذ أنه ، كما سبق القول، لا يمكن للاشتراكىين أن يتجنبوا التأثير بهذه الموجة إذا فقدوا اتجاههم الخاص وهيمنتهم الأخلاقية والسياسية فى المجتمع.

الهوامش

١- «اليمين الجديد» ، أو الجناح المتطرف من نزعة المحافظة- الجديدة لا يجب الخلط بينه وبين «اليمين الجديد الأوروبى» ، الذى يوصفه «شكلا ثالثا» شبه فاشى يعارض نزعة المحافظة. الجديدة، مثلما يعارض الليبرالية- الجديدة والاشتراكية والشيوعية.

٢- من المعروف جيدا أن الايديولوجيا الليبرالية- الجديدة مقتنعة بأن أحد أسباب الأزمة الاقتصادية كان هو النية الحسنة لمجموعة نخبة تثبط المعنويات وعاجزة تقنيا عن تحقيق الالتزامات الاجتماعية مع البيروقراطية النقابية، التى تجهل وتهمل الانتاج ولهذا السبب لاقتل المصالح الحقيقية للعمال. والبديل يكمن فى المثل الأعلى التكنوقراطى الشعبى: فئمة أشخاص واعدون سينظمون الاقتصاد فى علاقة مباشرة مع العمال، الذين «يشاركون» فى التجديدات، والمنافع والأخطار، والنموذج لذلك هو «مبدأ التناغم» الياباتى، الذى هو النتيجة النهائية لـ «رأسمالية شعبية» مزعومة.

٣- هذا اصطلاح دأب المحافظون- الجدد على استخدامه لوصف عملهم. انظر على سبيل المثال، الكتاب الذى يحمل نفس العنوان

يمكن للمحافظين- الجدد فى المجتمعات الرأسمالية المتروبوليتانية أن يواصلوا خلال زمن معين (حتى بعد ريجان والجمهوريين) حملتهم الظاهرة «مالم تطراً سياسة خارجية غير متوقعة أو كارثة اقتصادية» (١٥) ويمكننا أن نضيف الى ذلك: أو مالم تقع الكارثة البيئية كنتيجة للسعى وراء الربح والاستهلاك بلا حدود دون الالتفات الى الانسان والطبيعة.

هذا الوضع من «الاجماع المحافظ» لا يوجد فى امريكا فقط. إذ أن تقاربا مماثلا من الايديولوجيا المحافظة- الجديدة، أى الايديولوجيا الليبرالية- الجديدة، يمكن إدراكه بالفعل فى جزء من الحركة الاشتراكية فى أوروبا، وخصوصا من هم فى السلطة فى ايطاليا، وإسبانيا، وفرنسا. (١٦). ويمكن للعجز التقنى والمعنوى لدى الاحزاب الشيوعية ان يحملها على تبني نفس التنازلات فى الممارسة، على حساب اختياراتها الاشتراكية الأساسية، وذلك نظرا للأفكار السائدة لنزعة المحافظة- الجديدة. ويمكن بالفعل تبين بضع دلائل فى هذا الاتجاه، فى حالة شيوعيين معينين، خصوصا بين الانتليجنسيا الاقتصادية والتكنولوجية فى الغرب وفى فكرنا السياسى والعلمى اليوغوسلافى، وبالأخص حين تتحول الضرورة التاريخية للإعتراف بمشروعية السوق كأحد وسائل التحديث الإقتصادى، الى مثل أعلى تكنوقراطى متطرف يجد اقتصاد السوق، دون تصحيحات ذات مغزى للسياسة الاقتصادية، والتقنين الاجتماعى، والعدالة الاجتماعية.

- للفرنسى الذى يعمم المحافظة- الجديدة والليبرالية- الجديدة، ج. سورمان g.sorman (باريس، ١٩٨٣). ويستخدم بعض مؤلفى اليسار هذا المصطلح بنفس المعنى، مثلاً، أ. رايشلين a.reichlin ، خلال اجتماع المنظرين الايطاليين عام ١٩٨٦، لبحث نزعة المحافظة- الجديدة.
- ٤- فى أمريكا AEI، و هرويتاج- HOR ITAGE، وهوفر انستيتيوت HOOVER TNCTATE وغيرها. وفى إنجلترا، معهد الشئون الاقتصادية THE TNSTIOT- DE OF ECOMONIC AF- FAIRS، وفى فرنسا معهد باريس الاقتصادي L'TNSTITUT ECOM- OMIQUE DE PARIS فريزر انستيتيوت- FRASER INSTI- TUTE، الخ.
- ٥- أنظر ، على سبيل المثال، منشورات CLUB L'HORLOGE DE PAR- IS، مثل «الاشتراكية والفاشية، عائلة واحدة»، باريس ١٩٨٤، و ECHECS ET INJUSTICES DU SOCIALIS- ME باريس، ١٩٨٢.
- ٦- (انظر، على سبيل المثال، مقالات وانتقادات السوسيو- بيولوجيا فى كتاب "MISERE DE LA SOCIO- BI- P.TORT تاليف ب. تورث OLOGIE" وآخرون، باريس ١٩٥٨. وكتاب لوونتين- روز- كامين LOEWONTIN- ROSE- KAMIN بعنوان: BIOLIGY. IDEOLOGY" AND HUMAN NATURE:NOT IN OUR GENES" نيويورك،
- ١٩٨٤.
- ٧- «يميل الليبراليون المنتمون الى جمعية مونت بيليرين الى اعتبار أن من غير المجدى نقد اليسار، بل يجب رفضه. ومن الأمور الجوهرية ممارسة ضغط ايديولوجى دائم على اليمين بهدف منعه من المساومة مع دعاة الاستقرار». ج. سورمان : "LA SOLU- TION LIBERALE" باريس، ١٩٨٤، ص. ٨٦.
- ٨- مع تضامن يكاد لا يكون موجودا مع من هم فى ظروف التحلف، الذين لم يتركوا للفقر فحسب، بل يتحملون أزمات الغرب، فإنه فى المجتمعات المتقدمة يلاحظ فقدان حورى لتضامن الشعب تجاه العاطلين وغيرهم من مجموعات السكان المهمشين، بعد نتيجة للأزمة بقدر ماهو نتيجة لتأثير الروح اللا- اجتماعى لدى نزعة المحافظة- الجديدة.
- ٩- ردا على السؤال الذى وجهه أ. رايشلين (فى الاجتماع المذكور عام ١٩٨٦) ما الفترة التى يمكن أن تدومها هيمنة الليبرالية- الجديدة؟، كانت الاجابة أن على اليسار أن يفهم أنه بعد عشر سنوات من الريحانية ، يعتقد كثير من الناس أنهم الآن أفضل بكثير مما كانوا قبلا.
- ١٠- يرتبط بهذا إنتقال جزء من يهود الشتات فى الغرب الى المعسكر المحافظ- الجديد، أنظر، مثلاً، بعض التحليلات بالنسبة للولايات المتحدة بقلم ب. روزنبرج B. RA- SENBERG وج. هاو J. HOWE فى كتاب "NEW CONSERUA- TIVES" نيويورك، ١٩٧٨.

الجديد»، انظر، على سبيل المثال، ف. هيرن F. HERN، في مجلة "TELOS" ١٩٨٣/٥٦، والنقد حول الادماجية- الفئوية- الجديدة لدى أوفه في أعمال مختلفة، ويرثى ج. سورمان أوجه ضعف الاتجاهات الادماجية النزعة في فرنسا، مستنتجا أن الحل الليبرالي بشكل طبيعي لا يستبعد الادماجية، بل على العكس يجب أن يجعلها تتعدد.

١٦- رقم ١٩٨٧/٣، "DIE NEUE GESELLSCHAFT/ FRANKFURTER HEFTE".
١٧- من الأمور المميزة، مثلاً، أنه خلال مؤتمر الحزب الاشتراكي في إيطاليا (١٩٨٤)، انتقد اشتراكي غير أرثوذكسي، هون. بوبيو N. BOBBIO، هاجس بعض المسؤولين الاشتراكيين بنموذج اقتصاد السوق، وحثهم على عدم نسيان التقاليد العظيمة للإصلاحية الاشتراكية، باعتبارها النجم الهادي للاشتراكية، مدافعاً عن العدالة الاجتماعية للدولة في الأمور الداخلية وفي العلاقات بين الدول. وتحت عنوان "GOD PROFRT"، تستخلص صحيفة "L'ESPRESSO" أنه «اليوم حتى ثقافة اليسار تمتدح وظيفة الريح التي لا بد لها. لكنها، بالدرجة الأولى، تنشر الرغبة في الرأسمالية على مستوى الجماهير (٨ يونيو، ١٩٨٦).

(عن مجلة CONTRARIOS الاسبانية العدد ٢).

١١- إن النقد الليبرالي الجديد لإدارة ريجان، والذي يضم مثلاً م. فريدمان M. FRIEDMAN، يشدد على أنه خلال السنوات الأربع الأولى لتلك الإدارة، زادت النفقات الفيدرالية من ٢٧.٨٪ إلى ٣١.٦٪ من الدخل القومي، وزادت نفقات الدفاع من ٧.٦٪ إلى ٩.٢٪ بينما زادت الميزانية الاجتماعية التي تتعرض لهجوم شديد من ١٣٪ إلى ١٣.٩٪.

١٢- تناقض آخر هو أن بعض ايدولوجيي الليبرالية الجديدة، من المحتمل أن يكونوا قد تصالحوا مع حتمية العجز، يعتبرون أن عيب وجود عجز ضخم ودائم يمكن أن يتحول إلى شيء جيد بشرط أن يفيد في الخط من شأن بيروقراطية الدولة، واجبارها على الاقتصاد والحد من تنظيمها ونشاطها.

١٣- أنظر، مثلاً، الملف الحديث في صحيفة لوموند دبلوماسيك LE MONED DIPLOMALIQUE بعنوان: "LE LIBERALISME CONNRE LES LIBERTES" الليبرالية ضد الحريات، ١٩٨٨.

١٤- أنظر، مثلاً، س. أوفه C. OFFE "CONTRADICTIONS OF THE WELFARE" لندن، ١٩٨٤، حيث يقر بـ «القيمة الوصفية الكبيرة لأطروحة إستحالة الحكم».

١٥- فيما يتعلق بتقارب بعض التيارات الأمريكية المحافظة- الجديدة والديمقراطية مع الادماجية- الفئوية و«الاتفاق الاجتماعي

صورة بالأشعة

لهذه مابعد - الحداثة

أدولفو سانشث باثكت

أن نحدد ما إذا كنا تاريخياً، واجتماعياً، وأيديولوجياً إزاء واقع مابعد- حداثى وإلى أى حد تجد الرؤية مابعد- الحداثية لهذا وذلك تبريرها.

بضعة تحديدات

حين نتحدث عن مذهب مابعد- الحداثة، فإننا لانشير - كما يجرى عموماً، نظراً للأهمية التى يكتسبها فى الفنون والأدب، خصوصاً فى أصوله - إلى أسلوب فنى، حدد، بعد تشويه سمعة أو أقول حركات الطليعة فى القرن العشرين. بل إننا نشير، بالأحرى، إلى مجموع من القضايا، أو القيم، أو المواقف التى، بصرف النظر عن درجة صحتها النظرية، لا يمكن إنكار أنها توجد، وتعمل أيديولوجياً، كجزء من الثقافة، أو الحساسية، أو الوضع الروحى لعصرنا. وحتى لو لم يوجد الواقع مابعد- الحداثى أو حتى لو بدا - أن وجد - مشوهاً فى الرؤية مابعد- الحداثية، فإن مذهب مابعد- الحداثة، بكل جوانب غموضه وتنوعاته، حقيقة. والحقائق - كما قال لينين - بالغة العناد. لهذا، علينا أن نواجهه مفسحين

منذ أواسط العقد المنصرم، يطرق أسماعنا مفهوم ملتبس وزلق هو مفهوم مابعد الحداثة ويشار به إلى حساسية جديدة، إلى أفكار جديدة، أو حالات مزاجية جديدة تتوافق مع واقع اجتماعى جديد - هو واقع مابعد- الحداثة - يأتى ليخلف واقعاً مستنفذاً: هو واقع الحداثة. وحتى لو كان الأمر مجرد هذا الارتباط الزمنى، فإن الحداثة ومابعد- الحداثة تقدمان فى علاقة معينة لاستنفد فى ذلك الارتباط. فما هى طبيعة تلك العلاقة بين كلا المصطلحين؟ هل هى علاقة استبعاد أم تضمن؟ علاقة اتصال أم انقطاع؟ علاقة إثبات، أم نفى، أم تجاوز؟ إن سابقة مابعد لا تكفى لتحديد تلك العلاقة حيث إنها لاتشير إلا إلى تتابع زمنى يأتى فيه واقع بعد آخر. لكنها توحى إلينا بأن الواقع الثانى - مابعد- الحداثى - لا يمكنه الاستغناء عن الواقع الاول - الحداثة - سواء لمواصلته، أو نفيه، أو تجديده، أو رفضه. إن مابعد فى تعبير مابعد- الحداثة، فى الوقت الذى تشير فيه الى واقع جديد، تبين تضمينه للحداثة - على النحو الذى سيتوجب بحشه، ومن ثم، لا يمكننا سوى أن نبدأ فى تأملاتنا من فكرة ماعن الحداثة، إذ لا يمكننا إلا انطلاقا منها

نقد ماركس للحداثة

هذه الرؤية التوكيدية للحداثة هي التي يعتقدها إيديولوجيو التنوير، الذين تعد الحداثة بالنسبة لهم - كما يصف كانط - هي بلوغ الانسان سن الرشد. ومايتيح، ويرشد، ويجسد هذا البلوغ هو العقل. والآن، اذا تركنا جانباً صرخة التحذير التي يطلقها روسو، في ذروة التنوير، حين يشجب، في مواجهة تفاؤله العقلاني، النتائج السلبية التي يجلبها على الانسان ذلك التقدم العقلاني في الثقافة والحضارة، (٢) فإن ماركس هو الذي يربط، بأقوى ما يكون، بين الجوانب الإيجابية والسلبية في الحداثة. ومع التشديد على طابعها المتضارب، فإن ماركس لا يجادل في الزايات التاريخية. للطبقة الاجتماعية التي تجسدها وتحفزها: أي البورجوازية.. لكنه، في نفس الوقت، يشدد على التكلفة الانسانية الباهظة التي أحدثها بالنسبة للبروليتاريا تقدم العقل ذاك، الذي يتجسد في التطور الهائل للقوى المنتجة. فإن رفع سيطرة الانسان على الطبيعة الى ذرى لم تعرف من قبل أبداً - بفضل تطور العلم والتقنية - قد ترجم إلى سيطرة أكبر للإنسان على الانسان - أخذت شكل الاغتراب. إن الحداثة تفتح امكانات هائلة للتطور في نفس الوقت الذي تحده فيه من وجهة نظر انسانية، إجتماعية. الا أن ماهو سلبي وماهو إيجابي يرتبطان على نحو باطني، جدلي. فالحداثة، التي لها - بسبب قالبها البورجوازي - كل هذه التكلفة الانسانية الباهظة تخلق في أحشائها الشروط التي

لأنفسنا طريقاً وسط الغاية المفهومية المتشابكة لأنصاره وخصومه. ومع التسليم بأن العلاقة مع الحداثة أمر لا يمكن تجنبه، فإن من الضروري لنا أن نبدأ منها لكي نفحص الإدعاءات مابعد - الحداثية التي تنطلق من نقد جذري. واذا كانت مابعد - الحداثة التي ينشأ منها الوعي مابعد - الحداثي تقوم على أنقاض الحداثة، فمن الضروري توضيح طبيعة ذلك الواقع الذي أصبح اليوم أنقاضاً والذي يحاول مذهب مابعد - الحداثة دفنه نهائياً.

من مصطلح الحداثة، يمكننا أن نفهم أنه يعنى العملية التاريخية التي تبدأ مع المشروع التنويري البورجوازي للتحرر الانساني، مع الثورة الفرنسية التي تحاول وضعه موضع التنفيذ، ومع الثورة الصناعية التي ستطور القوى المنتجة تطوراً ضخماً. وعملية التحديث التاريخية هذه هي عملية توسع مطرد. فالمجتمع الحديث مجتمع دينامي، في تطور مستمر، ومتجه صوب المستقبل، مجتمع لا يعرف حدوداً ولا ركوداً. وتظهر الحداثة متميزة بسلسلة من السمات الإيجابية:

١ - مشروعها للتحرر الانساني.
٢ - ايمانها بالعقل الذي يحفز السيطرة المتزايدة للانسان على الطبيعة وعلى علاقاته الاجتماعية، والانسانية.

٣ - الطابع التقدمي للعملية التاريخية، وهي عملية خطية وصاعدة يفسح فيها القديم مكانه للجديد وفيها - كما يقول ماركس - «كل ماهو صلب يتبدد في الهواء» (١). وكون المرء حديثاً هو كونه مفتوحاً دوماً على ماهو جديد في عملية تقدمية صوب غاية أو هدف أرقى. ومن ثم، فإن عنصراً جوهرياً للحداثة يتمثل في نفى الماضي، والقديم،

ستتيح - عند تدمير وتجاوز ذلك القالب البورجوازي - المرور إلى أخرى أرقى، معتقة حقا، حرة وإنسانية.

ونحن نوافق على اعتبار ماركس حدثا (٣)، لكنه حدث يطمح إلى أن يدفع إلى آخر مدى الأهداف التحريرية للحدث، مما يدفعه بالتالي إلى الكشف عن جوانبها السلبية - استغلال وإضطهاد البشر - التي تتحدد على وجه الدقة بحدودها التطبيقية. ف رؤية ماركس للحدث لا تنفصل عن النقد العميق لقالبها البورجوازي. كذلك فإن هذا النقد لاغنى عنه من أجل التأسيس عقلانيا للمشروع التحرري الشيوعي الذي يتجاوز الطابع المحدود، والطبقي الذي طرحه التنوير البورجوازي. الا أنه لابد من الاعتراف بأن ماركس، في رؤيته ونقده للحدث، لا يتخلى تماما عن الثقل العقلاني الكلي، التقدمي، والغائي، والمركزي - الأوربي للفكر البورجوازي المستنير.

انتقادات نيتشه، وفيبر، وأدورنو

بعد ماركس، قام نيتشه في القرن التاسع عشر، وفيبر ومدرسة فرنكفورت في القرن العشرين، بتجذير نقد الحداثة - سواء بأن وضعوا موضع التساؤل فرضياتها وأسسها أو بأن شجبوا نتائجها السلبية. ف نيتشه يهاجم مفهومى التجاوز والتقدم وبذلك ينزع القيمة عن التاريخ بوصفه عملية صاعدة تحت علامة الجديد. اذ ليس ثمة صعود بل عودة بالنسبة لنيتشه. ومن جهة أخرى، فإن القيم العليا التي يمكن أن يتوجه صوبها ذلك الصعود

التاريخي قد تحطمت. إلا أن نيتشه، رغم أنه ينسف أرضية العقل والتقدم وبذلك يسقط مشروع التحرر التنويري، فإنه لا ينكر هذا الأخير بصورة مطلقة حيث إنه يثق في «إنسان جديد» سيعرف كيف «يخلق قيمة جديدة». ففي أعقاب النقد الذي لا يرحم لأخطار الحداثة، وهي أخطار يعزوها إلى العلم، إلى العقلانية، إلى «موت الرب»، يرى نيتشه ذلك «الإنسان الجديد» وهو يشق طريقا بين تلك الأخطار، وبذلك يظل المستقبل مفتوحا.

وتتمحور رؤية فيبر للحدث حول السلطة الحديثة للعقل. هكذا يتطابق التحديث مع إضفاء الطابع العقلاني. ويفهم هذا الإضفاء للطابع العقلاني على أنه عملية مطردة تغترب فيها العقلانية وفق غايات أو قيم. والنظام الاجتماعي الحديث، نتاج هذه العملية، هو «قفص حديدي» يحدد بقوة لا تقاوم مصير كل فرد داخل قضبانته. والمقصود هو النظام الاقتصادي الرأسمالي الذي لا يعرف فيه الإنتاج قيمة سوى الفعلية، إنه نظام لا يتيح على خلاف ما يعتقد ماركس، إمكانية تجاوزه ولا حتى بالاشتراكية. والتحديث بوصفه إضفاء متصلا للطابع العقلاني يؤدي على هذا النحو إلى التقييد الحتمي والذي لا يمكن تجاوزه في «القفص الحديدي» للمجتمع الحديث.

أما بالنسبة «لأدورنو وهوركها» يمر في كتابهما **جدل التنوير**، فإن الحداثة تتسم بأنطلاق العقل موضوعيا، العقل المنظم أو الأدوات الذي يترجم إلى تقدم تقني واقتصادي لا محدود. وهذا العقل الأدوات الذي يحفز السيطرة التكنولوجية يتحول بدوره إلى مجرد جهاز للسيطرة في العلاقات بين البشر.

ومشروع التحرر التنويرى الذى كان يجب أن يتحقق، باعتباره تقدما وثورة فى التاريخ، يتهاوى وما يقدمه الواقع بدلا منه، خصوصا فى مرحلة المجتمع الصناعى المتقدم، هو مجرد تشيؤ وبقرطة للحياة الاجتماعية. ويبحث أدورنو عن التحرر فى المستوى الجمالى، فى الفن الذى يتصور سلفا نظاما للمصالحة.

الواقع الاجتماعى مابعد- الحداثى

يقدم نقد العقل، والتقدم، ومعنى التاريخ والذى يقوم به نيتشه، وفبير، وأدورنو، نقاط ارتكاز هامة للفكر مابعد الحداثى الذى سيمضى شوطا أبعد فى تحذير انتقاداته. إذ لايجرى نقد الحداثة فقط بل نقيها أما البدائل لما تم نفيه، والتي هى بالغة الشحوب، فتنتهى الى أن تصبح بالكاد ضوءا ذابلا فى الظلام. لكن، ماهو مابعد- الحداثى الذى يواجه الحداثة على هذا النحو؟ يقدم مابعد- الحداثى نفسه على أنه تحول جذرى فى الفكر فى شروط الوجود التالية لشروط الحداثة. وشروط الوجود التى يصر عليها مابعد- الحداثيين هذه هى الشروط الخاصة بمجتمع معلوماتى يقوم فيه تضاعف آلات المعلومات، بتلاعباتها اللغوية المتعددة، بالتأثير فى التفاعل الاجتماعى، إنه مجتمع يطرح فيه سؤال المشروعية بعبارات جديدة: بوصفه مشروعية - ذاتية للسلطة وبوصفه فقداناً لمشروعية المعرفة فيما يسميه ليوتار LYOTARD الحكايات العظيمة للتحرر أو الكلييه بالمعنى التنويرى أو الهيكلى- الماركسى، إنه كذلك مجتمع استهلاكي يكون فيه «التجديد المستمر... لازما فسيولوجيا لضمان البقاء

المجرد والبسيط للنظام، فالتجديد... هو مايسمح بأن تستمر الأشياء بنفس الطريقة»، كما يكتب فاتينو VATTINO (٤) ويتعلق الأمر بنفس الدرجة بنظام اجتماعى لأنه- كما يكتب ليوتار- بلغ «أقصى درجات الموضوعة، يدخل فى أزمة الأشكال الأيديولوجية التى كانت تكسبه المشروعية» مما يدفع الى «الوعى نقديا بالقوة المدمرة الكامنة فى العقل RATIO وفى علاقة العقل RATIO- السيطرة» (٥). لكننا، بالتأكيد، اذا التفتنا الى علاقات الانتاج التى هى فى أساس هذه الآلية لاستغلال وإخضاع البشر والشعوب، لوجدنا أن الأمر يتعلق- دون التعبيرات المطلقة من قبيل المجتمعات الاستهلاكية أو المجتمع مابعد- الصناعى- بالمجتمع الرأسمالى المتطور، بالرأسمالية المتأخرة أو الرأسمالية متعددة القومية التى تظهر بعد الحرب العالمية الثانية والتى، بعيدا عن أحداث قطيعة مع المنطق التوسعى للرأسمالية الحديثة- التى عرفها ماركس، ووصفها، وشرحها- فإنها تفتح مرحلة ثالثة فى ذلك التوسع «بعد التوسعات الأولى للسوق القومية وللإمبريالية»، التوسع الذى لايعرف جيوبا للاختباء، سواءا كانت الطبيعة، أم الوعى الباطن، أم الفن، أم العالم الثالث. فى هذا الفضاء متعدد القوميات الذى يبرز فيه الأفراد والشعوب فى الاصفاد، يجب البحث عن جذور وضرورة مذهب مابعد- الحداثة الذى يسمه جيمسون JAMESON لذلك بأنه المنطق الثقافى للرأسمالية العابرة للقومية أو الرأسمالية المتأخرة. (٦).

لكن، لفهم السبب الذى من أجله تولد الرأسمالية المتأخرة ذلك المنطق الثقافى، أو ذلك

الوعى مابعد- الحداثى الذى يشل الأفهام، وكيف ينجز هذه الوظيفة الايديولوجية، والاجتماعية، والسياسية، فإننا بحاجة الى تحديد بعض السمات المستقرة نسبيا فى الطبيعة الملتبسة، والزلفة، والمتنافرة لمذهب مابعد- الحداثة. لكن سيكون علينا أن نرسم صورته من خلال أوجه نفية بالدرجة الأولى.

أوجه النفى مابعد- الحداثية

إنه ينفى، فى المقام الأول، ما يمثل ذات جوهر الرؤية الايجابية للحداثة: أى مشروعها التحررى. وقد رأينا أن هذا المشروع، بعد تعرضه لانتقادات نيتشه، ومدرسة فرنكفورت، لم يعد يستطيع الابقاء على صورته الأصلية، البورجوازية، رغم أن فكرته فى التحرر الانسانى يمكن إنقاذها مثلما حاول نيتشه، وماركس، وأدورنو إنقاذها. والآن، فإن مثل هذا الانقاذ مستحيل بالنسبة للفكر مابعد الحداثى، ليس فقط بالشكل الذى فعله النقاد المذكورون، بل بأى بديل يحاول تجاوزها. فمشاريع التحرر من قبيل مشاريع التنوير البورجوازي والماركسية تقع ضمن مايسميه ليوتار الميتا- حكايات التى تفتقر الى المشروعية. ونفيها مابعد- الحداثى لايجرى من أجل تجاوزها بإسم مشروع آخر، يتخطى حدودها أو يبحث عن أسس جديدة. فهذا المشروع الأخير يتضح أنه عبثى حيث أن الفكر مابعد- الحداثى يطوح بعيدا نفس مقولة الأساس مما يدمر كل محاولة لإضفاء المشروعية على أى مشروع. بالتأكيد، توجد رابطة وثيقة بين

المشروع والأساس، حيث أن أى مشروع يجب أن يتأسس. لكن اذا قطعت الرابطة بين هذا وذاك، يصبح أى مشروع مستحيلا حيث لن يوجد أساس يكسبه المشروعية. هكذا يعلن فرانكو كريسبى FRANCO CRESPI، أحد شراح الفكر «الراهن» أو مابعد- الحداثى: «إن الاقرار بالافتقار إلى أساس ويطابعه الذى لارجعة فيه يحمل معه التخلّى عن أى إغراء لصياغة مشروع شامل لتغيير الواقع الاجتماعى (٧) لكن، هل يمكن فى مجتمع غير عادل التخلّى عن مشروع تغييره وعن تأسيس ذلك المشروع؟ من المؤكد أن ذلك التأسيس يمكن أن يكون- مثلما فى عديد من المذاهب الخلاصية أو الطوباوية- وهيبا أو طوباويا، لكنه يمكن أيضا أن يكون- مثلما فى الاشتراكية الماركسية- واقعيًا وعقلانيًا. ومن جهة أخرى، اذا جرى تأكيد الافتقار المطلق الى أساس، فعلى أى شئ نؤسس غياب الأساس؟ إننا نرى، أذن، أنه ليس من السهولة بمكان أن نستغنى عن الأساس.

ان نفى المشروع التحررى هو، بالتحديد، مسألة محورية ليس نظريا فقط، بل عمليا، وسياسيا كذلك، حيث إنه يحط من قيمة الفعل ويحكم على المرء بالعجز أو بالطريق المسدود لليأس حين يؤسس- الآن نعم يؤسس- لاجدوى كل محاولة للتحويل الجذرى للمجتمع الراهن. ولهذا السبب يلجأ الفكر مابعد- الحداثى إلى أوجه نفى أخرى مثل نفى التجاوز، والتاريخ، والذات، والتقدم، والجدة، الى آخره، مستفيدا فى هذا المجال مما قدمت بذره بالفعل- كما يبين فاتيمو- من جانب نيتشه

وهايدجر. (٨) اذ يتم ادراك التجاوز على أنه إحدى مقولات الحداثة التي لا يمكن قبولها حتى بوصفها تجاوزا نقديا حيث أنها تبقى على قماهى IDENTIFICACION الكائن مع الجديد، الذي يفتقر الى القيمة بالنسبة لما بعد-الحداثة. والتاريخ بدوره هو إحدى الرؤوس التي تتدحرج تحت المقصلة ما بعد-الحداثية. فلم يعد الأمر يتعلق لا بالتاريخ دون ذات، الذي تطرحه البنيوية الفرنسية، ولا حتى بغياب معنى التاريخ، بل أن الأمر بصورة بسيطة ومجردة هو عدم وجود تاريخ، وإذا كان قد وجد تاريخ فقد وصل الى نهايته أو أننا فى ما بعد-التاريخ. يتحلل التاريخ باعتباره عملية موحدة تتمتع بتماسك وعقلانية معينين. ويتغير وعينا بالزمن حيث إن تكنولوجيا المعلومات قبل الى نزع طابعه التاريخي بقصرها للأحداث ضمن مستوى التعاصر أو التزامن، الحاضر يمتص الماضي وبالمثل يجرى امتصاص المستقبل: ما يجب أن يأتي أو ما يجب انتظاره. أو كما يقول بودريار -BAU DRILLARD «لقد وصل المستقبل فعلا» ولا يجب انتظار أية يوتوبيا.

يتمحور الفكر ما بعد-الحداثي، إذن، فى الحاضر، فى حاضر يعيد إنتاج نفسه والجديد فيه هو مجرد نفس الشيء. لم يعد الأمر يحتمل الحديث عن التاريخ بوصفه عملية تصب فى حاضر يجب أن يفسح الطريق-بتحويله للمجتمع فى المقام الاول-الى المستقبل، الى مالم يصل بعد والذي تناضل من أجل وصوله. ومن ثم يتميز الفكر ما بعد-الحداثي بهذا التمجيد للحاضر ونفى المستقبل والذي هو، فى الحقيقة، مصالحة مع حاضر، هو حاضرننا، مصالحة هى علامة النزعة المحافظة

على الدوام. وليتذكر القارئ هيجل فى فلسفة الحق الذى يصلح الفكرة مع الواقع، الدولة التى يجسدها العقل مع الدولة البروسية فى زمنه. بالنسبة لهيجل، كان التاريخ قد وجد-التاريخ الذى يقود الى ذلك الحاضر، لكنه فعلا لا وجود له لأن ما يهم هو ذلك الحاضر وليس المستقبل. بالنسبة له-مثلا بالنسبة لما بعد-الحداثيين- مامن ضرورة لتغيير ذلك الواقع. وأولئك الذين يطمحون الى تغييره ثوريا لا يفعلون سوى إطلاق العنان «لنفاذ صبرهم الذاتى».

وبالنسبة لـ «موت الذات»، الذى أعلنه مذهب ما بعد-البنيوية الفرنسى، فإن مذهب ما بعد-الحداثة- يتبناه، مواجهها بذلك كل بقاء رومانسى للعبقرية، أو مواجهها التجارب الحديثة فى التوق أو التمرد الشخصى التى يمثلها جيمسون على نحو نموذجى بـ صرخة مونش MUNCH (٩). مؤكدا أن تحلل الذاتية أمر واقعى وليس مجرد مشكلة إيديولوجية أو جمالية. فالتحديث الرأسمالى قد فتت الفرد بتقسيم العمل وحلل الفردية عندما شياً بقرط وجوده. لكن الإقرار بذلك لا يحمل جديدا: فقد وصفه ماركس وشرحه، وجعلنا كافكا نرى بطريقة حية، فى ذروة الحداثة- فى المحاكمة مثلا-، هذا التحلل للذاتية، لكن ما بعد-الحداثيين يجعلون الأطروحة مطلقة الى حد إنكار الأسلوب الشخصى فى الفن وإغلاق الباب لإغلاقا محكما أمام ذاتية جديدة. وفى الحقيقة، فإن «موت الذات» حقيقة فى عالم متشظى، متبقرط، لكن فقط اذا وضع هذا العالم خارج التاريخ، يصبح من المستحيل إنقاذ الذات التى مامن سبب يجعلها مختزلة فى الأنا

يؤكد كلاوس ر. شيريه - «نزع درامية النهاية» (١٠). ففي مواجهة كارثة نووية محتملة ، يتراجع الرعب أمام التشوق.. أمام جاذبية أو الافتتان بتجربة النهاية كما يتضح بالدرجة الأولى في الطبعة الألمانية لمذهب مابعد-الحداثة. فالهاوية- الكارثة النووية- التي تشير الافتتان ليست حدثا مدمرا أو سلبيا تماما بالنسبة للانسان، إذ أن الانسان يتطهر ويتأصل فيه. وكما يقول شيريه مفسرا فلسفة مابعد- الحداثة عند أولريش هورستمان -UL RICH HORSTMANN، فإن «الافتتان يرجع الى اكتشاف الذات، في لحظة الفناء» (١١) إننا، إذن، ازاء افتتان، نشوة ، «فورة» أو «أخلاقيات جديدة للموت»، وكلها تعبيرات جديدة، مابعد- حداثية نذكرنا بالتعبير الذي ليس جديدا تماما، تعبیر «الوجود من أجل الموت» لدى هايدجر باعتباره حياة أصيلة انسانية. لامقاومة ولاتسليم، بل تجربة لأصالة الانسان بالضبط في لحظة فنائه. ويصبح من المفهوم ، على ضوء هذه الأفكار ، أن يقوم مفكران فرنسيان يدوران في فلك مابعد- الحداثة- مثل بودريار و جلو كسمان- بالدعوة الى رفع مستوى التسليح النووي. ولم لا اذا كان ذلك سيعجل النهاية، أى الحدث الذى سيتيح للبشرية اكتشافها الذاتى وتحققها - الذاتى؟ ومن جهة أخرى، فإن الإفتتان ازاء الهاوية لدى القضاء على الاحتجاج والمقاومة، لدى نزع درامية النهاية والتمتع بها، يمنع هذا الوعى بالكارثة باعتبارها عرض بعد جمالي، رغم انه بذلك لا يكون أقل سياسية.

رأينا، إذن فيم يصب اصفاء الطابع المطلق من جانب النقد مابعد- الحداثى على الطاقة التدميرية للحداثة، أنه يصب فى مصالحة مع

وفى الحقيقة، لا يكف مذهب مابعد- الحداثة عن أن يأخذ فى اعتباره الشروط الراهنة للوجود ، التى لأنها لم تكن معطاة فى الحداثة، يمكن اعتبارها «مابعد- حداثية». إننا نحيا فى عالم القنبلة النووية، عالم تكون فيه نهاية التاريخ الواقعى ممكنة لأن نهاية البشرية ممكنة، عالم تكون فيه نهاية التاريخ الواقعى ممكنة لأن نهاية البشرية ممكنة. ولاتنقصنا، إذن ، عناصر كارثية واقعية للإقرار بأن الطاقة التدميرية للحداثة قد تقدمت الى درجة تحولها الى الدمار المطلق. ومن المؤكد أنه، فى قلب الحداثة، قد جرى- منذ ماركس وحتى أدورنو- شجب طاقتها التدميرية، لكن فقط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية نعرف أن تلك الطاقة تتبلغ بعدا مطلقا بتهديدها لبقاء البشرية ذاته. بهذا المعنى يكون من المشروع الحديث عن شرط مابعد- حداثى للوجود، حين يجد هذا الأخير نفسه تحت تهديد إبادة نووية تنضم اليها كتهديدات واقعية أيضا كارثة إيكولوجية ومأساة وراثية غير مستبعدة.

والوعى بهذا الشرط مابعد- الحداثى ضرورى للاسهام فى جعل «تدمير البشرية لذاتها» لا يتحول الى واقع . لكن الأمر بالنسبة للفكر مابعد- الحداثى يتعلق بـ «احتضار الواقع» (تعبير بودريار) الذى يبرر أوجه نفى هذا الفكر للتاريخ، وللتقدم، بالدرجة الأولى، لتوقع حدث يغير التاريخ.

الافتتان بـ «أخلاقيات الموت» والتحور

أحد ميول الوعى مابعد- الحداثى هو- كما

الواقع حين يتبنى هذا الواقع الشرط مابعد- الحداثى لخطر تدمير ذاتى للبشرية. مصالحة تحمل داخلها مع « أخلاقيات الموت » تحررا كان قد تم نفيه حتى تلك اللحظة. وفاتيمو لا يضل الطريق حين يعتبر هايدجر « فيلسوفا لمابعد- الحداثة » (١٢) وهكذا نكتشف انه فقط مع النفى المطلق الذى تمثله اباداة نووية يعثر الفكر مابعد - الحداثى على ما أنكره على الحداثة: أى التحرر، والأصالة أو إعادة امتلاك الوجود الإنسانى.

البدائل مابعد- الحداثية

والآن حسنا، اذا انتقلنا من هذا التوكيد الأخير، الذى يحمل طابع القيامة، لما هو إنسانى على نحو أصيل، إلى البدائل التى يقدمها مذهب مابعد- الحداثة لأوجه نفيه، السالفه الذكر، للتاريخ، وللمستقبل، وللذات، وللعقل، لرأينا أنه لا يقدم سوى بدائل واهنة. وهذا يوافق فكرا وسم نفسه، بالتواضع الذى يخفى الترفع، بأنه فكر « واهن » ففى مواجهة النفى الحداثى للماضى والتأكيد على الجدة والانفتاح على المستقبل، يشعر مذهب مابعد- الحداثة بحنين الى الماضى، وعند النظر الى الوراء، يستعيد السلطة والتقاليد. ومن هنا لا يرى فيه هابرماس سوى موقف محافظ- جديد. فمنذ اللحظة التى ينكر فيها مذهب مابعد- الحداثة الجديد بوصفه قيمة، فإن ما يقدره هو الماضى الذى امتص حاضر يغلق الباب أمام المستقبل بإعادة انتاج نفسه، ومن هنا يرفض التجديد الذى تمثله الثورة على المستوى الاجتماعى، أو التجديد الذى تبحث عنه على المستوى الجمالى مجموعات الطليعة فى القرن العشرين

فى تتابع من المذاهب. وفى وفاق مع هذا الحنين للماضى، يأتى استغلال مابعد- الحداثة للتقاليد بمعيار توفيقى ECLECTIO والتوفيقية التى تعتبر بالغة التدنى فى الحداثة، وغريبة تماما على الطلائع الفنية، ينظر إليها مذهب مابعد- الحداثة نظرة ايجابية. اذ بافتراض عدم وجود تاريخ أو معنى للتاريخ يتم تبرير التوفيقية تجاه معاييرها، وفماذجة أو أساليبه. ويمكن أن يتواجد معا فى ناطحة سحاب قسم أوسط كلاسيكى- جديد، ومجموعة أعمدة رومانية، وواجهة من طراز تشيبينديل-CHIPEN-DALE. (١٣).

والملمح التوكيدى أو مابعد- الحداثى الآخر هو استعادة ما هو مفتت فى مواجهة فنون القص الحديثه التى تحدث أثرا كليا، والتى إنتقتها ليوتار. ففى الفن- كما يقول سيمون مارشان فيز SINON MARCHON FLS « يرتبط التفتيت بالتخلّى عن الأطر الدائمة، عن أشكال المراتبية، عن الأسلوب أو الاتجاهات المتجانسة » (١٤) كذلك فى مواجهة مشروعات فنون القص التى تحدث أثرا كليا يجرى التشديد على الطابع المحلى أو الإقليمى لها. وأخيرا، وكنتيجة لنى المذهب لكل مشروع تحررى، ونظرا لأن المشروع منذ أصوله التنويرية وبدرجة أكبر مع المشروع الشيوعى لما ركس له بعد سياسى، فإن مذهب مابعد- الحداثة يحول الاهتمام من الفعل الى التأمل، من السياسى الى الجمالى. لكن كذلك إلى الجمالى المتحرر من الميل الحديث الذى تبلور فى الطليعة الأصلية- المستقبلية، والبروليت- كولت، والانتاجية، الخ-، بجمعها بين التجديد الفنى والتجديد الاجتماعى، بين الفن والثورة،

مما ادخل التحرر في نفس قلب الفن. إن التجديد، الإبداع، كان بالنسبة للطليعة - قبل أن تدجنها السوق - بمثابة فعل تحرر. والآن فإن مابعد - الحداثة تحرر الفنان من المسؤولية التي يتولاها في الحداثة، حيث إن التحرر نفسه يفتقر الى أساس والى معنى.

للعقلانية (١٥)

فمشروع التحرر «غير المكتمل» لا يمكن تحقيقه الا بتجاوز الحدود البورجوازية، الرأسمالية التي لم تفعل، بعد ماركس، سوى أن ازدادت حدة، بدل أن تلغى لكنه ذلك المشروع بدوره لا يمكن أن يتحقق الا بأن نأخذ في الاعتبار الأشكال التي تتخذها هذه الحدود في الشروط مابعد الحداثة، أى الشروط الخاصة بالرأسمالية المتأخرة، وهذه الشروط بدورها لا يمكن أن تفلت منها، فى حقبة تلك الرأسمالية العابرة للقومية، البلدان قبل - الحديثة أو الجزئية - التحديث - أو المتخلفة - بالمعنى الرأسمالى. وضمن تلك الشروط مابعد - الحداثة التى يجب أخذها فى الحسبان هناك ليس فقط الأشكال التى تتخذها، على خلاف الماضى الرأسمالى الحديث، علاقات استغلال البشر والشعوب. بل ثمة كذلك دور الوسائط التاريخية الجديدة التى لا يمكن اختزالها، كما اختزلها ماركس فى مرحلة الحداثة، فى البروليتاريا، وهناك كذلك دور وسائل الاتصال فى تشكيل أو تشويه وعى الجماهير العريضة وهناك أيضا الخبرة التاريخية للمجتمعات التى، فى محاولتها تجاوز الحداثة البورجوازية، حولت مشروع التحرر الاشتراكى الى ما يعرف بأنه «الاشتراكية الواقعية». (١٦)

إن مابعد - الحداثة، اذن تقدم نفسها على أنها نقيض الحداثة، وبالتالي، على أنها نفى للعقل الذى تعيش عليه وللتاريخ الذى تحاول أن تتحقق فيه. والآن، هل من الممكن انقاذ شئ من أوجه النفى هذه؟ لقد رأينا أن الانتقادات التى توجه الى الحداثة من داخلها تنطلق هى ذاتها بدءا من طابعها المتناقض: محرره ومدمرة. لكننا، بالتأكيد، لم نعد فى الحداثة التى كانت موضوعا لتلك الانتقادات. فإن إضفاء الطابع المطلق على طاقتها التدميرية مع الاسلحة النووية، والرقى بعملية الاغتراب والتشيز والبقرة التى تبلغ أبعادا لم تكن تعرفها الحداثة، واتساع العقلانية الأداة، التكنولوجيا التى تقارب الالعقلانية، كل هذا يدفعنا الى الاقرار ببضع شروط راهنة للوجود، هى الشروط الخاصة بالرأسمالية المتأخرة أو المتعددة القومية، والتى لأنها لاتقبل الاختزال الى شروط الحداثة، شروط الرأسمالية الحديثة، الكلاسيكية، يمكننا أن نسميها - دون أن يكبتنا المطمح فالأمر لا يتعلق بالكلمات - شروطا «مابعد - حداثية». وعلى هذه الشروط يجيب مذهب مابعد - الحداثة بأسهامه برؤية للواقع مابعد - الحداثى تؤدى المهمة الأيديولوجية للمساهمة فى الحكم على البشر بالتراخى، والعجز أو السلبية.



التحرر فى الشروط مابعد- الحداثية

هكذا إذن، فإن الرد على مذهب مابعد-
الحداثة الذى يعلن أن أى مشروع للتحرر-
وليس فقط مشروع الحداثة- هو قضية خاسرة،
وأن محاولة تأسيسه عقلانيا تفتقر الى
الأساس وأن العقل الذى يحفز الثورة العلمية
والتقنية هو بالضرورة سلاح للسيطرة
والتدمير، ردنا هو أننا لانتطيع التخلي عن
مشروع للتحرر، بالضبط لأنه يجد أساسه

ومبرر وجوده فى شروط الوجود الراهنة التى
تجعله ممكنا وتجعل تحقيقه ممكنا، وضروريا،
ومرجوا. لكن هذا الموضوع لا يمكنه بسبب ذلك
أن يصبح مشروعا يحتفظ بشكله البورجوازي
أو يحاول تجاوز هذا الشكل، متمسكا بواقع قد
تخلف الى الوراء وتم تجاوزه فى الشروط التى
نسميها مابعد- حداثية.

إن المساهمة فى تأسيس، وتوضيح،
وتوجيه تحقيق مشروع التحرر ذاك الذى يظل،
فى الشروط مابعد- الحداثية، هو الاشتراكية
(١٧) اشتراكية مابعد- حداثية اذا شئت-

شروط وجودهم وعلاقاتهم المتبادلة» (وهذه الترجمة للفقرة عن النص الاسباني تختلف بعض الشيء عن الترجمة العربية لدار التقدم)

٢- راجع دراستي روسو في المكسيك
ROUSSEAU EN MEXICO,
CO.70, EDITORIA D GRIJAL-
BO, MEXICO D.F., 1969, PP. 15-
21

٣- هذه هي أطروحة بيرمان في عمله المذكور والذي يتطور على الأخص في الفصل الثاني.

٤- جيانى فاتيمو: نهاية الحداثة. GIAN-
NI VAHIMO, EL FINDE LA
MODERNIDAD GEDISA BAR-
CELOMA, ESPANA, 1986, P. 14.

٥- FRANCO CRESPI, "AUSENCIA DE FUNDAMENTO
Y PROYECTO SOCIAL", EN: G,
VATTIMO Y P.A. R OVATTI
(EDS.), E1 BENSAMIEUTO DE
HILGATEDRA, MADRID P. 249.
FREDERICK JAMESON, -٦
"POSTMODERNISMO: LOGICA
CULTURAL DEL COPITALISMA
TARDIO", EN ZONA, NUM. 38,
MADRID, 1986, ESPECID-
MENTE PP. 107-111 Y 119-124

٧- فرانكو كريسي، العمل المذكور ص ص
FRANCO CRESPI. ٣٤٣

٨- فاتيمو، العمل المذكور ص ص ٩-١٠

٩- جيمسون، النص المذكور آنفا.
KLAUS R. SCHEPE, -١٠
"DRAMATIZACION Y DESDRA-

لا يمكن عملها الا بقدر ماتكون نظرية الواقع
الذي يجب تغييره والإمكانات، والطرق،
والوسائل من أجل تغييره منتهية لنهض ذلك
الواقع وتتحرر من المفاهيم الغائية، والتقدمية،
والانتاجية، والمركزية- الاوربية لدى الحداثة
والتي بلغت كذلك حد أن تشبع بها فكر
ماركس وأمتد أمدّها الى عصرنا. وهذا يعنى
بدوره أنه لا يجب أن نولى أذنا صماء
للاتنقادات الموجهة للحداثة بعد ماركس، ولا
لما أسهم به النقد ما لبعد- الحداثى- دون أن
يقصد- فى ذلك التحرر.

الهوامش

١- كلمات ماركس وانجلز فى بيان الحزب
الشيوعى المأخوذة كعنوان لكتاب مارشال
بيرمان: كل ماهو صلب يتبدد فى الهواء.
خبرة الحداثة. (MARSHALL BER-
MAN, TODO LO SALIDO SE
DESVANECE EN EL AIRE, LA
EXPERIENCIA DE LA MODER-
NIDAD, SIGLO XX1 DE ESPA-
NA, MADRID, 1988)

والفقرة الكاملة التى يود عنها بيرمان تضى
كمايلى: «ثورة متصلة فى الانتاج، زعزعه
لاتتوقف لكل الشروط الاجتماعية، قلق وحركة
دائمان، (كلها) تميز الحقبة البورجوازية عن كل
الحقب السابقة. كل العلاقات الراكدة والبالية، مع
حاشيتها من المعتقدات والأفكار الموقرة طوال
قرون، تنحل، أما الجديدة فتشيع قبل أن تتمكن
من صلب غورها. كل ماهو صلب يتبدد فى
الهواء، كل ماهو مقدس يدنس ويجد الناس
أنفسهم فى النهاية مضطرين للنظر بهدوء فى

للتحرر و«الاشتراكية الواقعية» بحث في
"IDEAL SOCIALISTA Y مقالتي: NEXOS,
SOCIALISMO REAL , NEXOS,
N. 44, MEXICO D.F. 1981
ENSAYOS MARXISTAS: في كتابي:
SEBRE HISTORIA Y POLITICA,
DE LA OCEANO, MEXICO D.F.:
IDEA REEXAMEN DE SOCIA-
LISMO"

وهو بحث مقدم في الدائرة المستديرة ٨٥ لمجلة
TRIBUNA INTERNACIONAL
(كافكات، يوغوسلافيا) ومتضمنه في الكتاب
"DEL OCTUBRE RUSO A المذكور، و
LA "PERESTROIKA".

MEMORIA, BOLKN DEL CE-
MOS, N. 7, NOV-DIC. DE 1987

١٧ حول صلاحية المشروع الاشتراكي للتحرر
انظر، اضافة الى النصوص المذكورة، مقالتي:

"MAYISMO Y SOCIALISMO;
HAY", NEXOS, N. 126.

MATIZACION DE "EL FIN": LA
COMCIENCIA APOCOLPTICA
DE LA MODERNIDAD, Y LA
POSMODERNIDAD", EN: MOD-
ERNIDAD Y POSTMODERNI-
DAD, COMPILACION DE JOSEP
PICO, ALIANZA EDITORIAL ,
MADRID, 1988.

١١- ك. س. شيريه، في العمل المذكور، ص
٣٧٧.

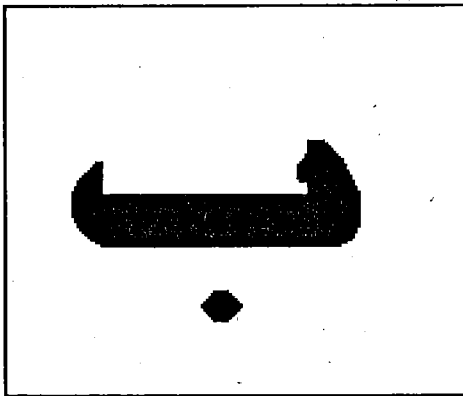
١٢- في العمل المذكور، EL FIN DE
LA MODERNIDAD

١٣- يورد اندرياس هويسن ANDREAS
HUYSEN هذا المثال مشيرا الى ناطحة
سحاب شركة أمريكان تليفون آند تليجراف
AT لفيليب جونسون في مقاله:

"CARTO GRAFIA DEL POS-
MODERNISMO"
MODERNIDAD Y POST-
MODERNIDAD, ED. CIT.P. 197
SIMON MARCHAN FIZ , ١٤-
DEL ARTE OBJETUAL AL ARTE
DE CONCEPTO. EPILOGO SO-
BRE LA SENSIBILIDAD
"POSTMODERNA" 3 A ED .
MADRID, EDICIONAS AKAL,
MADRID, 1988, P. 335

١٥- راجع انتقادات هابرماس لما بعد -الحداثة
في مقاله، المنشور أصلا عام ١٩٨١، «الحداثة
» ضد ما بعد -الحداثة»، والمتضمن في كتاب
MODERNIDAD Y POST MODER-
NIDAD, ED. CIT, P. 87-102

١٦- حول العلاقة بين المشروع الاشتراكي



ونظرية . فها برماس يجد نفسه مضطرا للدفاع عن استمرار الحداثة (الرأسمالية) بطريقة لانتقدية تماما ، على أساس فرد « قوى » ، وعقلانى وشفاف يسعى إلى إجماع مع الآخرين من خلال حوار غير مشوه . ، أما الشيوعيان سانشث باثكت و أ. مينا بولى

U. minapoli فيضطران إلى قبول الوضع الذى يحلله ما بعد - الحداثيون ، لكنهما يرفضان تحليلاتهما باعتبارها إيديولوجية ويعيدان طرح فكرة « إشتراكيه ما بعد - حداثية » لانرى جيدا فيم تختلف عن بعض اطروحات المؤلفين الذين ينتقدانهم . ، واخيرا ، فإن ما يسمى « ما بعد - الحداثة بوصفها مقاومة » لدى خ . بايستيروس تستخدم ركائز نظرية بدءا من غاندى حتى توينبى ، مروراً بـ A. cox ، كوكس ، وأوكتاويو باث Octviopaz ، ويونج Jung ، وثورو THoreau ، وتنتهى بالدفاع عن حقوق الإنسان مفهومة على أنها « حقوق ثابتة ، منحها الرب » ، مقتفية خطى جيفرسون Jefferson .

وما دمننا قد عيننا عالم الخطاب وحددنا حدوده جداليا ، فلنتقدم إلى تشخيص الوضع الراهن الذى يمكننا أن نسميه ما بعد - حداثى لا نتقابل بينه وبين الحداثة بطريقة راديكالية ومانوية كما يقول مينا بولى ، بل لنعرفه بأنه اللحظة التى تكتسب فيها الحداثة ذاتها وعيا لا يقتصر على بعض مفكرى المنعزلين ، بل على مستوى شامل ، بتعقيدها ، والتباسها ، وطابعها الشكلى ، مما يضاف عليها طابعا متناقضا . وهذا ما كان قد استشف منذ بداية الحداثة بعض المفكرين ذوى التفكير الواضح ، من إراسموس Erasmo وميكافيللى Ma-

quiavelo حتى ماركس وفرويد ، لكن الجماهير وحتى الجمهور المستنير لم يكونوا واعين بهذا الطابع الشكى والمتناقض للحداثة وتبنوا التقدم الذى جلبه التحديث الرأسمالي بصورة غير إشكالية . ان ما بعد - الحداثة ، إذن ، هي هذا الاكتساب للوعى العام بالطابع الذى لم يعد غير مكتمل ، بل متناقض ، وشكى ، وإشكالى لحداثة كفت عن كونها مغامرة لتتحول إلى روتين يسبب الإغتراب

(م . ديرمان M . derman) .

على المستوى الهيكلى ، فإن ما بعد - الحداثة هي حقبة ما بعد - الفوردية ، حقبة الرأسمالية غير المنظمة (أوفه C. offe) والعامل الاجتماعى (ت . نيجرى T. ne- gri) ، فى تقابل لا هو راديكالى ولا تناحرى ، بل تميزى ، تجاه حقبة الفوردية ، حقبة الرأسمالية المنظمة والعامل الجمهور والتي حددت الحداثة الرأسمالية حتى سنوات السبعينات . فبينما تتحدد الفوردية بنظام إنتاج بالجملة لأشياء موحدة قياسيا ، يستخدم مذهب تيلور كتنظيم علمى للعمل ، على أساس ميكنة المهام وتقسيمها إلى أجزاء المكونة ، والتعبير الكلاسيكى عنها هو خط التجميع ونظام استهلاك موحّد قياسيا كذلك ومضمون من خلال التفاوض الجماعى ، وسوق قومىة محكومة وتنظيم مركزى للاقتصاد ، فإن ما بعد - الفوردية تفترض شكلا جديدا للسوق أكثر تمايزا وقطاعية . فلم يعد الإنتاج انتاجا كبيرا ، بل ينتج سلاسل قصيرة تستهدف ، فى وقت معين ، جمهورا متمائزا من حيث العمر ، والجنس ، ونوع الدخل ، إلخ وتنشط السوق إلى سلسلة من الشرائح المنعزلة تمثل

الكيينزية ، المميزة للفوردية . هذه الرأسمالية غير المنظمة ستجد نفسها ، وفق ما يقوله أوفه ، مواجهة بازدياد سوق العمالة المشار إليه آنفاً ، وبأهمية بطاله هيكلية متزايدة تشير التهميش ، ويظهر قطاع اقتصادى غير رسمى ، مطمور ، ذى أهمية متزايدة ، بنزعة إدماجية - فئوية جديدة naocorpora-ativismo تزيد بدرجة هائلة من صعوبة عمل النقابات الكلاسيكية ، وبإخفاق التحكم الكييزى فى الاقتصاد من خلال سياسة مركزية ومتفق عليها على نحو شامل مع النقابات ، مما يعرض للخطر دولة الرفاهية ، المميزة للرأسمالية الفوردية فى فترة ما بعد الحرب ويفسح المجال لإنهاء تقنين الاقتصاد ولعودة الليبرالية كفلسفة سائدة .

وفق نظرا . نيجرى ، يمكن تشخيص الوضع الراهن بما يلى : فقدان مركزية العمل المنتج بصورة مباشرة إزاء ما يمكن تسميته العامل الاجتماعى ، أى « مجموع وظائف التعاون فى العمل المنقولة من خلال الشبكات المنتجة الاجتماعية » ونزعه استهلاكية جديدة ذات طابع فردى وتقنين نقدى للاقتصاد على نطاق عالمى ، وتكوين اجتماعى ، ذهنى الطابع ونشط ومتعدد القدرات للبروليتاريا . فى هذا الوضع المدرك مفهوما على هذا النحو ، تطرح أمام اليسار علاقة إشكالية مع تقاليده ذاتها ، سواء كانت فى الخط الاشتراكى الديمقراطى ، أو كانت فى الخط الشيوعى .

* يستخدم المصطلح لتعريف الدولة الفاشية التى ظهرت فى أوروبا عقب الحرب العالمية الأولى وخصوصا فى إيطاليا والبرتغال وتتميز بالغاء النقابات والهيئات النيابية واتخاذ القرار من خلال لجان يندمج فيها ممثلو العمال ورأس المال معا وذلك لإحكام الاستغلال الوحشى للطبقة العاملة . وينظره فى العربية مصطلح « إدماجية » لكننا فضلنا استخدام « إدماجية - فئوية » لإظهار تزايد وزن اللجان النقابية القاعدية والفرعية على حساب النقابات الكبيرة -

جيوبا نوعية مستهلكة لمنتجات منجزة فى سلاسل قصيرة يكتسب فيها التصميم والعلامة التجارية أهمية متزايدة . ويتيح التصميم والإنتاج المداران بالكومبيوتر (CAM - CAD) هذا النوع من

الإنتاج « حسب الطلب » الذى يشمل من القمصان حتى السيارات . أما خط التجميع فقد اكتسب مرونة بسبب استخدام ماكينات وأنواع إنسان آلي متعددة الأغراض ، قابلة للبرمجة لتؤدى مهامها نوعية . وأما تنظيم العمل فهو ما بعد - تيلورى ويتمحور حول حلقات جودة تسيير وفق سياسة « العيوب تساوى صفرا » وحول مجموعات صغيرة تكون مهامها أقل آلية وأكثر ابداعية وتشاركية . وتجذب اليد العاملة نفسها منقسمة إلى سوق عمالة مزدوجة : نواة من العمال الثابتين ، متعددة القدرات وعالية الاستعداد وحولها محيط من العمال المياومين يجرى التعاقد معهم للقيام بمهام نوعية بشكل مؤقت . فى ما بعد - الفوردية ، يميل التفاوض الجماعى الشامل الذى تقوم به النقابات الكبرى إلى أن يحل محله تفاوض تمايزى وشرايحى مع النقابات الصغيرة لفروع الصناعة أو للمصنع . أى اللجان القاعدية ، مما يفسح المجال لنزعة إدماجية - فئوية corporativismo* وحشية (R. murray) .

إن ما بعد - الفوردية هي التعبير عن رأسمال غير منظم يحل محل الرأسمالية المنظمة

تشاركية وقربا من الشارع ، قائما على أساس برنامج إصلاحى قوى على مستوى العصر ، يحدث قطيعة مع النزعة العمالية والنزعة السوفيتية . والتشكيل الشيوعى الذى أعيدت صياغته على هذا النحو وحده الذى يمكنه أن يشكل دعامة لحركة سياسية تجديدية ويجتذب نحوه قطاعات من أحزاب اشتراكية تتزايد باستمرار يمينيتها وتصفيته للطابع الإيديولوجى بحيث فقدت من تلقاء ذاتها إمكانية أن تكون نواة اليسار لكن هذا المشروع يفترض أن تكون علاقة اليسار بتقاليد علاقة « باق على قيد الحياة » يحاول إلقاط ما يستطيع من بقايا حطام السفينة الغارقة ، أكثر من كونها علاقة « وريث » يستعد للاستمتاع ، دون أن يمسه أذى ، بشمار ميراثه (لويس مارتين سانتوس

Luis Martin Santos) . وأى

استمرارية ذات نزعة ظافرة لا تصفى حساباتها ، بطريقة النقد الذاتى ، مع ماضيها وتخدع نفسها بشأن التغيرات الحقيقية التى أصبح من الواجب أن تدخلها على ممارستها وعلى نظريتها ، ستكون عاجزة عن إنجاز إعادة التأسيس الضرورية هذه للحركة الشيوعية ليس باتجاه الرأسمالية والاشتراكية الديمقراطية ، بل باتجاه الحركات الإجتماعية والعالم الثالث ، وستعود الحركة إلى ركود وتهميش متزايدين ، فى إطار أزمة رأسمالية عامة تتجسد فيها العدمية الأشد إكتمالا وتغوص فى ابتذال عام متجمد فى الزمن على نحو متصل . ومن وجهة نظر نظرية ، فإن إعادة تأسيس حركة التغيير تقتزن بقراءة تجديدية ، بتفكيك ، للماركسية فى محاولة لإنقاذها من

وبالنسبة للخط الأول ، فإن القبول غير المشروط للتحديث الرأسمالى ، وكذلك قبول الحرب الباردة ضد الإتحاد السوفيتى ، وتحديد سياسة هذا الخط المطلوبة فى حدود جوانب إعادة التوزيع دون التأثير بشكل حاسم ، فيما عدا إستثناءات نادرة مثل السويد ، فى الآليات الانتاجية (الديمقراطية الصناعية) وفى عملية التراكم الرأسمالى (إضفاء الطابع الإجتماعى على الإستثمارات) ، والعجز عن تطوير سياسة متماسكة مناهضة للرأسمالية ، كل هذا يدفعه إلى أن يظل بصورة لا فكاك منها مستوعبا ضمن النظام الإقتصادى والسياسى الرأسمالى ، رغم المحاولات الحسنة النية ، لكن العقيمة تماما من جانب بعض اشتراكيى اليسار لتغيير هذا الميل . وبالنسبة للتقاليد الشيوعية القائمة ، فى مقابل التقاليد الاشتراكية الديمقراطية ، على أساس النموذج السوفيتى وعلى الدفاع عن الثورة فى مواجهة النزعة الإصلاحية ، فإن فقدان النموذج المذكور لجاذبيته ، جزئيا فقط وكاتجاه مازال غير مستقر ومتعدد تستثمره البير يسترويكما الحالية ، وقبول الديمقراطية كعنصر جوهري فى الطريق إلى الاشتراكية ، كل ذلك يخلق لها أزمة هوية لن يمكنها الخروج منها إلا اذا حققت إعادة تأسيس شاملة بمعنى شيوعية أوربية يسارية تقيم حركة سياسية واسعة ومركبة ، قادرة على إلقاط كل الحساسيات التى يمكن أن تكون مناهضة للرأسمالية والموجودة فى المجتمع الراهن وتضع موضع التنفيذ نوعا جديدا من السياسة أكثر

عدوي القيم الخاصة بالحدثة الرأسمالية ، والتي حددها سانشث باثكت علي نحو صائب : ألاوهي النزعة الغائية ، والنزعة الإنتاجية . ونزعة التقدم ، ونزعة المركزية - الأوربية . ورغم صحة ما يؤكده سانشث باثكت ومانويل بايستيرو Manuel baiestero بشأن الطابع المركب وغير الإختزالي لفكر ماركس ، فلا بد كذلك من الأخذ في الإعتبار أن الماركسية الفعلية ، أي تلك التي تجسدت في الحركات الإجتماعية والسياسية والتي أحدثت تأثيرات باقية في إيديولوجيا وممارسة اليسار ، كانت ماركسية مختزلة على نحو أقتصادوي النزعة وإنتاجي النزعة ، قائمة على تفاؤلية وعلى نزعة غائية ومركزية - أوربية تسبب الشلل وكل من التقاليد الكاوتسكية والتقاليد اللينينية تشتركان في هذه العيوب . ان قراءة جديدة للماركسية ، تحررها من علمويتها وتقبل المشكلات التي يحملها مفهوم التأسيس النظري للممارسة على ضوء الصعوبات التي تمثلها حاليا النظريات الشاملة ، مفهومة على إنها ميتا - حكايات تقدم تبريرا ومشروعية . قراءة تحدث قطيعة مع تفاؤليتها الغائية وخصوصا مع مفهوم للشيوعية على أنها حالة نهائية أسطورية ، بدون تناقضات ، يكون فيها المجتمع عقلانيا ، وشفافا ومتصالحا ، هذه القراءة مازال يمكنها أن تكون صالحة كأداة موضوعية لفهم بعض الجوانب المحورية ، للمجتمعات الرأسمالية الراهنة . وهذه القراءة التفكيكية للماركسية يجب أن تقلب المراتبية التقليدية بين ماهو محوري وما هو هامشي وأن تبحث في جوانب هامشية معينة عن مفاتيح قراءة تجديدية . ومن بين هذه الجوانب التي أبقتها التقاليد هامشية هناك :

التلميحات الإيكولوجية لماركس ، التي استعاضها ساكريستان Sacristan وتحليلات الآلية في الأسس Grundrisse ، وإمكانية تعددية التطورات التاريخية المختلفة والموجودة في المراسلات المتأخرة لماركس مع الشعبين الروس ، والوعى بالهشاشة الجذرية للحدثة والذي أبرزه م. بيرمان M. berman في تحليله لـ البيان ، وقراءات الكتاب الأول من رأس المال التي قام بها م. رايمان M. Ryan ، مبرزا العلاقات بين السياسة والإقتصاد ، وقراءة نيجري المنصبة على الأسس Grun-drissé بحثا عن ماركسية ما بعد- لينينية ، والقراءة التي قامت بها الماركسية التحليلية ، مستخدمة طقس أدوات العلوم الإجتماعية المعاصرة مثل نظرية القرار العقلاني ، ونظرية التشكيلات وغيرها .

هذه الماركسية المجددة والمعاد بناؤها يمكنها أن تفيدي في تطوير نظرية للتطور التاريخي تكون قادرة على أن تحل بكفاءة محل فلسفات التاريخ ذات الصبغة الهيجلية ، التي تم قمريرها مرات عديدة على أنها 'نظرية الماركسية الأصلية وكذلك لخلق نظرية لتأسيس الذات التاريخية محل محل الطبقة الكلاسيكية التي جعلت من البروليتاريا الركيزة الوحيدة للتاريخ في انطلاقته الوحيدة وغير المنقطعة صوب الشيوعية هذه النظرية للذات التاريخيه والسياسية الجديدة تفترض نظرية جديدة للطبقات الاجتماعية تأخذ في اعتبارها أن هذه الطبقات تتأسس كنتيجة للصراعات السياسية والاجتماعية أكثر مما تتأسس بوضعها الاستاتيكي في اطار الجهاز الإنتاجي (برزيفورسكى. Przeworski) مقابل

١. أولين رايت (E. . olin Wrigth) .
يجب تجاوز الحدود الاجتماعية النزعة للنظرية
الماركسية الكلاسيكية عن الطبقات الاجتماعية
وتطوير نظرية ملائمة وراثة عن البروليتاريا
الجديدة وعن الطبقات المتوسطة الجديدة .
كأساس لسياسة ملائمة للتحالفات ضمن كتلة
تاريخية جديدة قادرة على إنتاج هيمنة
مناهضة للرأسمالية في المجتمعات المتقدمة
الحالية .

إن تأسس ذات تاريخية جديدة متعددة
ومتنوعة يفترض مفهوما جديدا للكلية ،
مفتوحا ولا مركزيا ، لا يقوم على سيطرة
البروليتاريا على مجموع من الطبقات أو
الشرائح الخاضعة ، بل على التنسيق بين
عناصر مختلفة إجتماعية ، وسياسية ،
وثقافية ، يوحدنا برنامج ويكون هدفها هو
إتاحة هيمنة جديدة مناهضة للرأسمالية . وقد
أعاد ش . موفل CH.moufle و١ . لاكلاو
E.laclau طرح مفهوم الهيمنة الذي يرجع إلى
لينين وجرامشي ، مستفيدين من بعض
مفاهيم ديريدا ومبرزين أهمية العوامل الثقافية
والايدولوجية بوجه عام من جهة ومن جهة
أخرى رافضين « الإختزالية الطبقيّة » المميّزة
للمفهوم الماركسي الكلاسيكي ، مما يفترض
إعادة تقييم الأهمية المحورية لموضوعات ليست
طبقيّة بصورة مباشرة ، ومتقاطعة مع التقسيم
الطبقي للمجتمع من قبيل تلك المرتبطة
بنضالات الحركة النسائية ، وحركة السلام ،
وحركة البيئة ، وحركات الإثنيات والأجناس ،
وحركة التحرر الجنسي ، إلخ . هذا المفهوم
للهيمنة يدعم أهمية القيم غير الاقتصادية ،
التي سميت تسمية سيئة بأنها مابعد - مادية ،
و المرتبطة بالتأكيد الذاتي للكرامة الخاصة ،

ولضرورة التواصل ، ولحياة يومية مشبعة
وغير مشبعة وغير مغتربة ، إلخ . هذه القيم
لها مكونات ثقافية قوية وتفسح المجال
لسلسلة من الحقوق يمكن تسميتها بأنها حقوق
من الجيل الثالث ، تتطلب أساليب حياة
جديدة ، أكثر أصالة واستقلالا ، ويجري
التعبير عنها من خلال الحركات الإجتماعية
الجديدة ، وتضاف إلى حقوق الإنسان من
الجيل الأول أو الحقوق المدنية والسياسية وإلى
الحقوق من الجيل الثاني أو الحقوق الإجتماعية
والاقتصادية .

(ب . صوصا سانتوس B . SOUSA)
SANTOS) هذه الحقوق ، أكثر من كونها
تقدم على أساس تشريع مرتبط بالطبقة
الإجتماعية ، تقوم على مفهوم موسع وتجديدي
لمقولة المواطن التي تضم ليس فقط الحقوق
السياسية ، مثلما في التقاليد الليبرالية ،
وليس فقط الحقوق الاقتصادية والاجتماعية ،
مثلما في التقاليد الديمقراطية والاشتراكية ،
بل كذلك الحقوق المتعلقة بالتحرر من الإغتراب
ومن القمع الثقافي ، وفي هذا المفهوم للهيمنة
تُكف الجوانب الثقافية عن أن تتكرر مجرد
جوانب من البنية الفوقية لتغرس نفسها في
البنية التحتية ، وقد أوضح م . رايان ، على
أساس تفكيك ديريدا للميتافيزيقا الغربية ،
الأهمية السياسية للميتافيزيقا ، لأن
الميتافيزيقا تقف على رأس التنظيم المقولاتي
للواقع وعمليات الإدراك العقلي له ، التي
تكتسب تثبيتا وفعالية واقعية عن طريق
تقنينها من خلال المذاهب الأكاديمية والتنظيم
الإداري للمعرفة .

إن مفهوم الهيمنة الذي أعاد طرحه لاكلاو
وموفل يقوم على أساس نقد للاقتصادوية

يشدد على أهمية الخطاب فى الحياة الاجتماعية ، إذ أنه مامن ممارسة اجتماعية لا تكون ممارسة اجتماعية لا تكون ممارسة خطاب ، بمعنى أنها لا يمكن أن تكون مفهومة إلا من خلال اللغة . وقموضع ARTICULACION الخطاب بين مختلف المستويات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية هو على وجه الدقة مايؤسس وحدة الوسيط الاجتماعى والهيمنة ليست ، من وجهة النظر هى ، « علاقة خارجية بين وسائط اجتماعية مؤسسة سلفا ، بل هى نفس عملية التأسيس الخطابى لهذه الوسائط » .

إن المفهوم الجديد للهيمنة الذى يعاد تناوله هنا لا يكف فقط عن كونه اقتصادويا بل يحاول كذلك الإفلات من النزعة القانونية للتقاليد الليبرالية والماركسية الكلاسيكية وهنا يكتسب مفهوم الفيزياء المجهرية للسلطة - MICRO FISICA والسياسة المجهرية - MICRO POLITICA المأخوذ عن فركوه أهمية كبيرة فالنضال من أجل الهيمنة لا يفترض فقط نضالا على المستوى الإقتصادى وعلى مستوى السياسة الكلية MACROPOLITICA من خلال الانتخابات والنشاط البرلمانى ، بل يفترض كذلك سلسلة من النضالات الجزئية ، والجزئية ، اليومية ، على كل مستويات الحياة وضد كل السلطات المجهرية - MICROPO DERES الاجتماعية ، والإدارية ، والثقافية إلا أن النضالات المحددة ، الجزئية ، يجب أن يتم التنسيق فيما بينها ، وأن تندمج ضمن النضالات الكبيرة على مستوى كلى ، مما يباعد بين موقفنا وبين أى رفض باعث للفوضى للمشاركة فى النضال السياسى الكلاسيكى ، كما تتهم أحيانا الاتجاهات الملهمة لموقفى .

فليس ثمة أى رفض للسياسة بل توسيع لها لتناسب الحياة اليومية وأكثر الجوانب إنظمارا وخفاء ، رغم أنها قائمة ، للسلطة والإضطهاد الاجتماعى ، والسياسى ، والاقتصادى ، والثقافى . تجرى معارضة السلطة الكلية بخطة متسقة تتكون من التنسيق بين ما لا يحصى من آلات الحرب الجزئية التى تسعى إلى ضبط موجتها ، الى التناغم ، لكى تستطيع إحداث شروخ وقزقات ، محلية وكوكبية ، داخل النظام (ديلوز ، جوتارى ، نيجرى) . يتخذ ويضاف إلى النضال الصدامى نضال حرب عصابات لا يتوقف فى الزمن ومنتشر فى كل الفضاء ، يسعى إلى الإندماج فى نضالات أوسع . وأكثر المشكلات التى تواجه الحركات البديلة حدة هى ، على وجه الدقة ، النجاح فى إقامة آلية تنظيمية فى منتصف الطريق بين الحزب الجامد المركزية والمراتبية وبين الحركة المشتتة المعدومة القيادة ، آلية تكون قادرة على التنسيق بين النضالات المحددة دون أن تضفى عليها المراتبية ولا إن تضحق بها من أجل هدف له الأولوية ، وأن تهيبى ، نفسها ببرنامج يكون موحدًا دون أن يضفى الصبغة المتجانسة ولا أن يضع الأمور على نفس المستوى ؛ فى هذا النوع الجديد من التنظيم السياسى يكتسب المستقلون أهمية قصوى لانهم بكونهم (العمل الثانوى) PARERAGON بالنسبة للأحزاب السياسية ، لأنهم ليسوا موضوعين لا فى خارجها ولا فى داخلها ، يتصرفون من خلال منطق التكميل SUPLEMENTARIDAD ، إذا استخدمنا مصطلحات ديريدا ، الذى يحولهم من ذلك الشئ غير الجوهري ، وبالتالي ، الذى يمكن الاستغناء عنه ، إلى

عنصر أساسى لتفاعل الحركات السياسية نفسها ، ويقوم بدور الوسيط بين الاحزاب وبين المجتمع .

إن تشديد طرحنا على الطابع المفتت للنضالات وكذلك على استحالة اقامة تلك النضالات على أساس نظرية عامة تفيد فى التنبؤ بالنتائج المحتملة لتلك النضالات ، يمكن أن يقربه من الهندسة الاجتماعية المفتتة ، المميزة للعقلانية النقدية لدى بوير - POP PER وألبرت ALPERT ، والتي أعاد التقاطها فى بلدنا بعض المفكرين والسياسيين الإشتراكيين من أمثال كينتنانيليا QUINTANILLA وبارجاس ماتشوكا VARGAS MACHUCA . ومع الإقرار بأن العقلانية التى يستخدمها طرحنا قابلة للخطأ وغير مكتملة حيث أنها يجب أن تقرر فى حالة من عدم اليقين ، فإن علينا أن نحدد الاختلافات الجوهرية بين النضالات المفتتة لدى بوير . فى المقام الأول ، فإن أطروحاتنا تنفذ من أسفل ، بدءاً من المقاومة ، بينما تتحقق أطروحات الهندسة الاجتماعية إنطلاقاً من السلطة . ومن ناحية أخرى فإن أطروحاتنا هى تجريب واضح له طابع اللعب ، وله نغمة واضحة مناهضة للرأسمالية ، تحاول تحطيم حدود النظام الرأسمالى واحداث شروخ فى قلبه ، بينما تحاول الهندسة الاجتماعية ، من خلال اصلاحات محكومة ، انقاذ حدود النظام . وأطروحاتنا مستقلة ، وعفوية ، وإيجابية ، وهى تعبير عن نشاط المجموعات الاجتماعية ، وينزعها حدود المجالات النوعية ، تحاول إتاحة المجال أمام فضاء ممد ، أمام اندفاع غير محدد ، أمام غير مفتوح ، وهى تعبير عن الرغبة كما أنها تعمل بطريقة بارا - منطقية (ليوتار) إزاء العقلانية

النمطية للسلطة التى تعتبر هذه الأطروحات « لاعقلانية » . ومقابل ذلك ، فإن إصلاحات العقلانية النقدية تابعة ، بمثابة رد فعل ، وسلبية وتحاول الاستجابة لعفوية المجموعات الاجتماعية بتصفية مكوناتها المناهضة للرأسمالية وبإختزال تعقيد النظام " وهى تعيد تحديد حدود المجالات النوعية وتحاول تثبيت المجموعات ونشاطها من خلال صنفاء مقامة سلفاً ، وتفسح المجال لفضاء محفور يحدد بطريقة جامدة مجال التحركات الممكنة ، وهى كذلك عمليات للسلطة تقتصر على استخدام العقل الأداة . كل ما سبق يحدد الاختلاف الجذرى بين كل من نوعى الأطروحات ونوعية الإصلاحية " فبينما تميل الإصلاحية الأولى إلى التوسع حتى تصبح قادرة على إحداث تغييرات لا رجعة فيها ، تغييرات ثورية ، فإن الإصلاحية الأخرى ، الليبرالية والاشتراكية - الديمقراطية ، تحاول تصفية البؤر المحتملة للتخريب وتهذئة نشاط الأفراد والمجموعات الاجتماعية ضابطة إياها وفق حدود النظام الرأسمالى .

وكختام ، يمكننا القول بأن القراءة الفاحصة للخبرات العملية وللأطروحات النظرية لهؤلاء المفكرين انطلاقاً من وجهة نظر مهمومة بتغيير المجتمعات الرأسمالية الراهنة على نحو عميق وجذرى ، يمكنها أن تكون شديدة الفائدة للتأسيس ، النظرى والعملى ، لكتلة تاريخية جديدة قادرة على توليد هيمنة من نوع جديد ما بعد - رأسمالى ، هيمنة رغم عدم كونها الدواء لكل الشسور ورغم أنها لا تؤسس مجتمعاً شفافاً ومتصالحاً تماماً ، فإنها تكون أكثر إحتراماً وقابلية للعيش فيها من المجتمع الراهن .

*M.FOUCAULT,MICRO
FISICA,DEL PODER,LAPI
QUETA,MADRID,1980

S Á B E R Y
VERDAD,LAPIQUETA,MAD
RID,1985.

*E.LACLAU Y CHMOU-
FLE,"HEGEMONIA Y NUE-
VOS MORRMIENTOS POLIT-
ICOS,ZONA

ABIERTA30,1984.HEGEMON
IA Y E S T R A T E G I A
SOCIALISTA,SIGLO,
MADRID,1987

*L.MARTIN
SANTOS,DIEZ LECCIONES
DE S O C I O L O G I A
FCE,MADRID,1988.

*F.JMARTINEZ,ONTOLÓG
IA Y D I F E R E N -
CIA,ORIGENES,MADRID
1987."COMUNISMO Y POST-
MODERNIDAD"EN
FIM,COLOQUIO DE
MARBELLA,1989.

*U.MINAPOLI,"MISERIA
DEL POSTMODERNO"EN
RINASCITA,NO.I,14-1-1989.

*A.NEGRIYF.GUATTARI,
LES N O W V E A U X
ESPACES "TEORIA DEL
P O D E R C O N S T I -
TUYEUTE"EN

: المراجع

*J.ARAC,POSTMODERNISM
& POLITICS,MANCHESTER
UNIV.PRESS,MANCHESTER,
1986.

*J.BALLESTEROS,POSTM
ODERNIDAD:DECADENCIA
ORESISTENCIA,TECNAS,
MADRID,1989.

*M.BERMAN,TODO LO
SOLIDO SE DESVANECE EN
ELAIRE,SIGLO,MADRID
1988.

* CULLER,SOBER LA DE-
CONSTRUCCION,CATEDRA,
MADRID1984.

* G.DELEUZE Y
F.GUATTARI,ELANTIEDIPO
,PAIDOS,BARCELONA,1988
MIL,MESETAS,PRÉTEXTOS,
VALENCIA,1988.

*J.DERRIDA,LA INSTITU-
CION ALIZACION DE
LAFILOSTAFIA,GRANICA,
BARCELONA,1984,ENTRE
VISTA EU LA LITERARY
REVIEW,NO.14,18-,1980.

*T.EAGLETON,AGAINST
THE
GRAIN,VERSO,LONDRES,
1986.

*E.SAID,THEWORLD,THE
TEXT AND THE CRIT-
ICS,HARVARD UNIV.PRESS
MASSACHUSSET,1983.

*A.SANCHEZ
VAZQUEZ"RADIOGRAFIA
DEL POSTMODERNISMOH
CONTRAIOS,NO.2.

*V.SONSA SANTOS,
"OSDIREITOS HUMANOS
NAPOS-MODERNIDADE"
JORNAL DE LE-
TRES,NO.355,1989.

CONTRARIAS,NO.1,ABRIL,1
989A.NEGRY

F.GUTTARI,LES NOW-
VEAUX,ESPACES DE LI-
BERTE,ED.DOM.BEDOU,
1985.

*C.OFF,DISORGANIZED
CAPITALISM,POLITYPRESS
OXFORD,1985.

*M.RYAN.MARXISM AND
DECONSTRUCTION,J.HOPKI
N S U N I V
.PRESS.BALTIMORE,1982.

